زاد المستفيد

في تفسير القرآن المجيد

﴿سورة النساء﴾

تأليف

عبد الرحمن العدوى

المراقب العام بكلية المعاملات والإدارة
جامعة الأزهر

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

يطلب من
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ت ٩٣١٢٩٦

الكتاب به ميل من الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾

صدق الله العظيم

مقدمة

عنى المسلمون منذ فجر الإسلام وظهور نور الهداية الإلهية بالقرآن الكريم فتضافرت جهودهم من حوله فى حفظه وتدوينه وتسجيله ثم فى فهمه وشرحه وتفسيره . ولسنا نبالغ إذا قلنا : إنه لم يظفر كتاب من كتب الأولين والآخرين بمثل ماظفر به القرآن الكريم من عناية أتباعه ومحافظتهم عليه ، فمنذ صدر الإسلام ومعارف المسلمين وعلومهم تنبثق من نور القرآن وتدور حول خدمته واستجلاء حقائقه والعمل بآياته وأحكامه فى كل ما يتصل بحياتهم وينظم شئون معاملاتهم ويحكم سيرهم وتصرفاتهم

وقد كان لهذه العناية آثارها المباركة الطيبة فى حياة الإنسان عامة وحياة المسلمين خاصة فأفادت منها العلوم والفنون والتشريع والفلسفة والأخلاق وزخرت المكتبة الإسلامية بروائع الفكر الإسلامى الذى يقف العقل أمامها مبهوراً يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة ولا يملك أمام عظمتها إلا الإقرار بالعجز والخضوع لهذا الكمال المستمد من نور القرآن وعظمته وهدايته ، فلا نكاد نجد علماً من العلوم التى اشتغل بها المسلمون إلا ويكون فى نظر من اشتغل به مقصوداً به خدمة القرآن وبيان معانيه وتحقيق آياته فى الكون والإنسان فظهرت بذلك علوم اللغة والنحو والبلاغة والتجويد والقراءات والتفسير كما ظهرت علوم التاريخ وتقويم البلدان وتخطيط الأقاليم وكذلك علوم الفلك والنجوم والطب وغير ذلك من العلوم التى توفر على معرفتها المسلمون خدمة لكتابهم وإسهاماً فى إيضاح معانيه ومراميه وشرح إيماءاته وإشاراته وهكذا كان القرآن الكريم مبعث نهضتهم وبداية انطلاقتهم ومنشىء حضارتهم حتى سعد العالم بعلوم المسلمين ومعارفهم ونهل من ثقافاتهم وأسلم أمره حيناً من الدهر لقيادتهم

وما عز المسلمون إلا بهذا الكتاب الكريم ولا يزالون يؤمنون أنه مصدر عزهم وأنه الموئل الذى به يعتصمون إذا نزل الخطب وتفرق الأمر وإنهم ليتطلعون إلى يوم يعود فيه سلطان القرآن فى حياتهم فيكون التشريع تشريع القرآن والأخلاق أخلاق القرآن والهدى هدى القرآن وعسى أن يكون قريباً .

العناية بشرح القرآن وتفسيره :

والقرآن رسالة الله إلى الإنسان يرشده إلى الطريق السوى فيما يعتقد ويؤمن ، وفيما يفكر ويتصور ، وفيما يسير ويسلك ، ينظم شئون الفرد فى حياته ، وفى أسرته وقرابته ، وفى مجتمعه وأمته ، وقد يسره الله للذكر وجعل فهمه ـ فى جملته ـ فى متناول كل فرد يسمعه الأمى فيفهم الوعد من الوعيد ويعرف الثواب والعقاب ويفرق بين من آمن واستقام ومن كفر وسعى فى الأرض الفساد ، ويسمعه العالم فتبهره آياته وتحتويه معجزاته ويتذوق حلاوته بالقدر الذى يسمح به فهمه وقدرته . « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ، « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

ومع هذا التيسير الذى اختص الله به القرآن الكريم قد يستغلق الفهم لبعض آياته فتكون الحاجة إلى شرحها وإيضاح معناها وقد حدث ذلك منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفهم بعض الصحابة آيات من القرآن واحتاجوا إلى الشرح والتوضيح وهم أعرف الناس بلغة القرآن ومن ذلك ما حدث من عدى بن حاتم رضى الله عنه عندما نزل قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » حيث عمد إلى عقالين له أحدهما أبيض والثانى أسود فوضعهما تحت وسادته وجعل ينظر إليهما فى الليل مرة بعد مرة لعله يستبين الأبيض

من الأسود كما فهم من الآية ، فلما أصبح الصباح ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ليس ذاك . إنما هو بياض النهار وسواد الليل

وقد حفظ الصحابة تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لبعض الآيات ونقلوه واجتهدوا فى تفسير البعض الآخر واشتهر بالتفسير من الصحابة الخلفاء الراشدون وابن مسعود وابن عباس وغيرهم ، كما أخذ عن الصحابة واجتهد فى التفسير جماعة من التابعين أشهرهم مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير أصحاب ابن عباس .

ثم ظهرت بعد ذلك تفاسير للقرآن الكريم اختلفت اتجاهاتها باختلاف ثقافات المفسرين ومذاهبهم فمنهم من عنى فى تفسيره بقواعد النحو ومسائله وفروعه كالزجاج والواحدى فى البسيط وأبى حيان فى البحر والنهر ، ومنهم من عنى بالقصص وذكر أخبار الأولين كالثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى كتابه الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، ومنهم من عنى باستنباط الأحكام الفقهية وذكر تفاصيلها كالقرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ فى كتابه الجامع لأحكام القرآن .

وآخرون اتخذوا من التفسير سبيلا لتأييد مذهبهم وإقامة الحجة على خصومهم فتأولوا القرآن ليوافق رأيهم وبذلك حكموا على القرآن ولم يحتكموا إليه ومن هؤلاء المعتزلى المجاهر باعتزاله كالزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى كتابه « الكشاف » والسنى الذى يساند رأى أهل السنة كالبيضاوى المتوفى سنة ٧٩١ هـ فى كتابه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » والصوفى الذى يسلك فى تفسيره مسلك التفسير الإشارى الذى عرف للمتصوفة كالألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ فى كتابه « روح المعانى » .

وبعد هؤلاء ظهر فريق ممن أخذوا بطرف من العلوم الحديثة وتلقنوا

شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها ويقسرونها على ذلك قسراً ويتأولونها تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم .

ولعلهم بذلك يحسبون أنهم يخدمون القرآن ويبرزون مدى إعجازه ويدعون له دعاية طيبة فى الأوساط العلمية . ولكنهم — وإن حسنت نياتهم — مخطئون فيما يفعلون فلم يكن القرآن كتاب علم واختبار يعنى بالنظريات والقواعد ، إنما أنزله الله كتاب هداية وتوجيه ، وماجاء فيه من حديث عن الكون وآياته ومالفت إليه الأنظار من نظام بديع وتدبير محكم فذلك بالقدر الذى يدل على عظمة خالق الكون وقدرته التى لاتحد وبالأسلوب الذى يكشف الغطاء عن العقول ويفتح أغلاق القلوب ويزيل غشاوة البصائر حتى يرى الناس نور الحق ساطعاً وسبيل الهداية واضحاً « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ومسلك هؤلاء ينزل بالقرآن إلى مستوى الجدل العلمى فإن حقائق العلوم ليس لها ثبات واستقرار فقد يرى العلم من القواعد والحقائق اليوم ما ينكشف فى الغد أنه كان خرافة ووهما — وحينذاك يبدو الأمر وكأن القرآن أخطأ فيما قرره أو أيده من نظريات العلم وقواعده ، ويصبح الذين ربطوا القرآن بهذه النظريات فى حرج بالغ يتلمسون وسائل الدفاع عن القرآن وماكان أغناهم عن ذلك .

وليس يزيد من عظمة القرآن وعلو شأنه أن يتحدث فى علوم الكون ومسائل الطبيعة والفلسفة فليس لهذا أنزل ، وقد لفت أنظار المسلمين فى أسلوب حكيم إلى أن هذا الأمر ليس من دعوته ولا جزءاً من رسالته إلى بنى الإنسان .

قيل يارسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى

يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وبدخول صناعة المفسرين وانطباع ألوان ثقافاتهم فيما يقدمونه من تفسير للقرآن وبتحكم العصبية المذهبية والعقيدة الكلامية وجذب آيات القرآن لتأييد مذهب أو اتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن ، وبالخروج بآيات القرآن عن كونها مصدر هداية وتوجيه وإيمان وتهذيب إلى تأييد نظرية علمية أو ظاهرة طبيعية أو حكمة فلسفية — بهذا وذاك زاد البعد بين المسلمين وبين كتابهم الذى أنزله الله ليكون المصدر الأول فى تهذيب وتزكية الوجدان ، ونهضة الشعوب ، وتنمية المعرفة ، والسمو بالإنسانية عن الدنايا والخبائث فى السلوك والعلاقات العامة وبذلك يكون القرآن ملبياً لحاجات المسلمين فى كل وقت وفى كل مكان

وبهذا وذاك أيضاً أقيم جدار يحجز بين المسلمين وبين استفادتهم من القرآن الكريم وما تضمنه من كل معانى الخير والبر وبقيت حاجتهم ظاهرة إلى تفسير يقدم لهم معانى القرآن فى صفائها ونقائها وفى بساطتها ويسرها دون أن تتحكم فى ذلك نزعة خاصة أو اتجاه معين أو ثقافة ذات طابع محدود .

فلندع للقرآن عظمته وجلاله ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن القرآن يملى ولا يملى عليه ، وأن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم — ولن يصادم — حقيقة من حقائق

العلوم تطمئن إليها العقول [1] .

وسنقدم بين يدى القارىء هذا التفسير لسورة النساء حسب المقرر على طلاب الفرقة الأولى من الكليات الحديثة بجامعة الأزهر وسنلتزم — بعون الله وتوفيقه — فى هذا التفسير ما يأتى :

١ — البعد عن التعصب لمذهب أو اتجاه معين والاحتكام إلى القرآن فى نظرة محايدة نأخذ منه ولا نتهجم عليه .

٢ — البعد عن البحوث اللغوية والقواعد النحوية وتفريع مسائلها إلا بالقدر الذى يحتاج إليه ظهور معنى الآيات

٣ — ذكر الأحكام التى تتضمنها الآيات فى أسلوب سهل بعيد عن اصطلاحات الأصوليين وتعقيدات الكلاميين وذلك مراعاة لثقافة المبتدئين .

٤ — بيان أن القرآن يعالج قضايا المسلمين فى حاضرهم كما عالجها فى ماضيهم وهو الكفيل بأن يقيلهم من عثراتهم ويأخذ بيدهم إلى عزهم وسعادتهم .

٥ — تأكيد أن القرآن فى سمو عبارته وإعجاز بلاغته فى متناول فهم الإنسان وإدراكه فقد أنزله الله لهدايته فلن يكون لغزاً يستغلق عليه فهمه وإدراكه .

وقد جعلنا الآيات فى صدر الصفحة متتابعة ليتمكن الطالب من حفظها ثم أردفنا التفسير بأحكام ميسرة فى تجويد القرآن حتى يتمكن الطلاب عن طريق دراستها والتلقى من أساتذتهم من الأداء الصحيح والتلاوة الحسنة .

وحسبنا ان تكون نياتنا خالصة لوجه الله تعالى فى تقديم هذا الجهد المتواضع جعله الله مقبولا ونافعاً للمسلمين آمين ؟

أول رجب ١٣٨٩
١٣ سبتمبر ١٩٦٩

عبد الرحمن العدوى — محمد سالم محيسن

(١) تفسير القرآن الكريم للامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

تعريف بالقرآن الكريم

القرآن كلام رب العالمين أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون هداية للناس فى حياتهم ، ونوراً لهم فى سلوكهم ومعاملاتهم ، من اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن ابتعد عنه ضل وغوى . « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »(١) . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم »(٢) .

نزول القرآن :

بدأ نزول جبريل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مباركة من ليالى شهر رمضان المكرم « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »(٣) . « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين »(٤) . « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . . . »(٥) .

وكان أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم »(٦) .

---

(١) سورة إبراهيم آية (١) .
(٢) سورة المائدة آية (١٥ - ١٦) .
(٣) سورة البقرة آية (١٨٥) .
(٤) سورة الدخان آية (٤) .
(٥) سورة القدر آية (١) .
(٦) سورة العلق آية (١ - ٥) .

روى البخارى ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء . فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قلت : ماأنابقارىء فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنىفقال : اقرأ . قلت: ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة . ثم أرسلنى . فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

والذى يجب الجزم به أن جبريل نزل بألفاظ القرآن المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد فى إنشائها ولا فى ترتيبها . فألفاظ القرآن التى نقرؤها ونكتبها هى من عند الله تعالى . وليس لجبريل عليه السلام فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول ، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم سوى وعيه وحفظه وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه .

ثم تتابع نزول القرآن منجما فى عشرين سنة أو تزيد ، تثبيتا لفؤاد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية لقلبه . « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةواحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا[1] » . وتربية للأمة الإسلامية على

(١) سورة الفرقان الآية (٣٢ — ٣٣) .

سبيل التمهل والتدرج تيسيراً عليهم فى اقتلاع ما فسد من عاداتهم وطبائعهم ، وغرس مكارم الأخلاق وحميد الصفات فيهم حتى أوجد من فرقتهم وحدة ، ومن شتاتهم أمة ، ومن ضعفهم عزة وقوة . « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى »(١) .

وفى نزول القرآن منجما — من الفوائد غير ما تقدم — تجديد التنبيه إلى مصدر القرآن ، وتكرار التحدى لأساطين البلاغة حتى يثبت عجزهم عن معارضته ، وتقصر هممهم عن مناهضته . وفيه كذلك مسايرة الحوادث والطوارىء فى تجددها وتفرقها ، فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه وإذا سأل سائل نزل القرآن مجيباً على سؤاله ولاشك أن فى اقتران النزول بأسبابه واقتران الجواب بالسؤال توضيحاً وبياناً ، وتثبيتاً لما نزل من الأحكام ، وإرشاداً لما يجب أن يكون فى مثل هذه الأحوال ، وتنبيها لما يحدث من الأغلاط والأخطاء ، وتوجيها إلى الحق والصواب فى ظروف مختلفة وأحوال متباينة تتطلع النفوس فيها إلى البيان الشافى والقول الفصل فيأتيها من لدن حكيم خبير تحمله آيات بينات « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » .

كان جبريل ينزل بالقرآن من لدن حكيم عليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتلقاه منه وهو أشد ما يكون حرصاً على حفظه واستظهاره والإحاطة بكل ما يوحى به إليه حرفاً حرفاً حتى بلغ من حرصه صلى الله عليه وسلم على ذلك أنه كان يحرك لسانه بالتلاوة قبل أن يفرغ جبريل من الإيحاء إليه، كان يفعل ذلك استعجالا لحفظه وجمعه فى قلبه مخافة أن تفوته كلمة أو يفات منه حرف ، ومازال كذلك حتى طمأنه ربه بوعده أن يجمعه له فى صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه فأنزل عليه قوله : « لاتحرك به

---

(١) سورة طه الآية (١٢٣)

لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[١] » . وقال له : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدنى علماً[٢] » .

حفظ القرآن ومدارسته :

فكان صلى الله عليه وسلم جامع القرآن فى صدره الشريف وهو النبى الأمى الذى ما كان يتلو من قبل القرآن كتابا ولا يخط فيه خطا فكانت همته ابتداء منصرفة إلى حفظ القرآن واستظهاره فى نفسه وتلقينه وتحفيظه لأصحابه ، يقرئهم آياته، ويبين لهم أحكامه، ويرشدهم إلى آدابه حتى كان كتاب الله فى المقام الأول من عنايتهم ، يتنافسون فى استظهاره وحفظه، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه ، ويتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يحفظون من آياته ، وكانوا يتعهدونه بالتلاوة فى صلواتهم وخلواتهم . فى سفرهم واستقرارهم ، فى مساجدهم وبيوتهم ، فى ليلهم ونهارهم . حتى لقد كان الذى يمر ببيوت الصحابة فى غسق الدجى يسمع فيها دوياً كدوى النحل بالقرآن ، وكان الرسول الكريم يستنهض الهمم لحفظ كتاب الله وتعهده بالتلاوة والمدارسة وله فى ذلك توجيهات سديدة ، وأحاديث شريفة بلغت من الكثرة والاستفاضة حداً كبيراً ، نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، وقوله، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وقوله : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة . والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف ، وميم حرف » . وقوله :« الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام

(١) سورة القيامة آية (١٦ — ١٩) .
(٢) سورة طه آية (١١٤) .

البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران[1] » .

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » .

ومن أراد المزيد فعليه بكتب الحديث .

وهكذا حظى القرآن الكريم من أتباعه بما لم يحظ ببعضه كتاب من الكتب السماوية قبله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكى فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه ، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم ، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته يعلمانهم الإسلام ويقرآنهم القرآن ، وكما بعث معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء .

قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل منا يعلمه القرآن . وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

ومن هنا كان حفاظ القرآن فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم جماً غفيراً منهم الأربعة الخلفاء (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى) وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبدالله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة . وهؤلاء

(١) أجر القراءة وأجر المشقة .

كلهم من المهاجرين رضوان الله عليهم أجمعين . وحفظ القرآن من الأنصار في حياته صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء ، ومجمع بن حارثة ، وأنس بن مالك ، وأبو زيد الذى سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومتى (رضى الله عنهم أجمعين) .

ويمكن أن نقرر — فى اطمئنان — أن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة. قال القرطبى « قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد[١] .

وقد كان جبريل عليه السلام يعارض[٢] النبي صلى الله وسلم القرآن في كل عام مرة ، وعارضه إياه فى العام الأخير مرتين . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى » والعرضة الأخيرة هى قراءة زيد بن ثابت وغيره. وهى التى أمر الخلفاء الراشدون بكتابتها فى المصاحف[٣] وقد شهد زيد بن ثابت العرضة الاخيرة التى بين فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها لرسول الله وقرأها عليه . وكان يقرىء الناس بها حتى مات ، ولهذا اختير لجمع القرآن كتابة فى عهد أبى بكر وفى عهد عثمان كما سيأتى بيانه[٤]

هذا ما كان من شأن حفظ الرسول وصحابته للقرآن الكريم واستظهارهم إياه وعنايتهم به إلى درجة تفوق كل تصور وخيال ، وقد بلغ الحفاظ من

---

(١) مناهل العرفان ص ٢٣٥ .
(٢) يراجعه معه .
(٣) ابن تيمية ص ٥٠ ، ٥١ .
(٤) البرهان للزركشى ج ١ ص ٢٣٧ .

الكثرة حدا جعل قتل مائة وأربعين منهم لا يؤثر فى جمهور الحفاظ ولم يحدث أزمة بين القراء رضوان الله عليهم أجمعين .

ولو أن الدعاة إلى الله ركزوا جهودهم على إقراء القرآن وتحفيظه لأغناهم ذلك فى الدعوة إلى الله عن كل جهد سواه ولكان عملهم موصولا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جعل القرآن أساس دعوته وركيزة تعليمه وتوجيهه . وإن ما نشاهده اليوم من تهاون بعض أهل العلم والدين فى حفظ القرآن ومداومة تلاوته إنما هو مظهر من مظاهر فساد الزمان وتشعب السبل بالمسلمين ، ولا منجاة ولا حياة إلا بالقرآن ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، . « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (١) » . « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (٢) » .

كتابة القرآن وجمعه

أما ما كان من شأن كتابة القرآن وجمعه فى الصحف فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتخذ عليه الصلاة والسلام كتابا للوحى ، كلما نزل شىء من القرآن أمرهم بكتابته وأرشدهم إلى الموضع الذى يضعون فيه ما نزل مرتبا بين الآيات والسور التى نزلت قبله ، وكان ذلك مبالغة فى تسجيله وتقييده ، وزيادة فى التوثق والضبط والاحتياط فى كتاب الله حتى تظاهر الكتابة الحفظ ، ويعاضد النقش اللفظ . روى عن ابن عباس أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من

---

(١) سورة الزخرف . آية (٤٤)
(٢) سورة طـه آية (١٢٤ — ١٢٦)

يكتب ، فقال : ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا ، . وعن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف (١) القرآن من الرقاع ، قال البيهقى : الشبه أن يكون المراد به تأليف مانزل من الآيات المفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة من النبى صلى الله عليه وسلم (٢).

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، وأبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس ، وغيرهم . وكانوا — على عادة العرب — يكتبونه فى اللخاف (٣) والعسب (٤) والأكتاف (٥) والرقاع (٦) والاقتاب (٧) وقطع الأديم (٨) . وكان كل ما يكتب من القرآن — على عهد النبى — يحفظ فى بيته . والشيعة يروون فى هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى — عليه السلام — ياعلى ، إن القرآن خلف فراشى فى الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه ... الخ)(٩)

وهكذا انقضى العهد النبوى المجيد والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد

---

(١) نجمع ونضم بعضها الى بعض كما أمر رسول الله صلى الله علية وسلم .

(٢) السيوطى ج ١ ص ٥٧ .

(٣) اللخاف بكسر اللام جمع لخفة وهى الحجارة الرقيقة . قال الخطابى: صفائح الحجارة الرقاق.

(٤) جمع عسيب وهو جريد النخيل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض.

(٥) جمع كتف وهو العظم العريض الذى للبعير أو الشاه . كانوا اذا جف كتبوا عليه

(٦) جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد

(٧) جمع قتب وهو إكاف البعير أى الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه (لسان العرب مادة ق ت ب)

(٨) الجلد المدبوغ (المصباح المنير ـ مادة (أدم)

(٩) الكاشانى ملا حسن فيض : الصافى ص ٩

أنه لم يكتب فى صحف ولا مصاحف . بل كان منثوراً بين اللخاف والرقاع والعظام وغيرها مما ذكرنا .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان منهم من يكتبون القرآن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم بالقدر الذى يحفظه الواحد منهم أو يبلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه مكاتيب خاصة بهم يوثقون بها ما يحفظون و بعضهم كان يعتمد على حفظه فلا يكتب .

وصفوة القول : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن محفوظ فى صدور جمهور غفير من صحابته مكتوب كله فى الرقاع والعظام واللخاف وغيرها مرتب كله آياته وسوره بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام ، ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر فى ذلك إلا من أمر الله عزوجل ، وقد سبق أن قررنا أن زيد بن ثابت رضى الله عنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن بين الرسول وجبريل وكتبها لرسول الله وقرأها عليه على هذا النحو المعروف من ترتيب السور والآيات .

وبهذا ثبت القرآن بطريقين :

١ — بالتلقى بالمشافهة والحفظ والاستظهار على سبيل التواتر والاستفاضة

٢ — بالكتابة . وذلك بتسجيله وكتابته فيما تيسر مما ذكرنا بواسطة كتاب الوحى بأمر الرسول وتحت إشرافه وتوجيهه .

الجمع الأول للقرآن (جمع أبى بكر) :

توفى النبى وتولى أبو بكر الخلافة وواجهته أحداث شداد ؛ فقد ارتد بعض العرب عن الإسلام ، ودارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب الذى أدعى النبوة ، واستشهد من المسلمين فى هذه الحرب عدد كبير ، ولقد كان حفظة القرآن وقراؤه أسبق الناس إلى الدفاع

عن الاسلام وأكثرهم إقداما فى ميادين القتال ؛ فقتل منهم كثيرون بلغوا فى موقعة واحدة هى موقعة اليمامة سبعين أو يزيدون فهال ذلك الأمر المسلمين وخاف عمر على القرآن فدخل على أبى بكر واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء .

ويروى البخارى فى صحيحه قصة هذا الجمع فيقول .

« عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال :

أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة — أى عقب استشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة — فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر رضى الله عنه :

إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر[1] يوم اليمامة بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن[2] ، فيذهب كثير من القرآن . وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر :

كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال عمر :

هذا والله خير .

فلم يزل عمر يراجعنى[3] حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر .

---

(١) اشتد .
(٢) أماكن المعارك .
(٣) يعاود قوله المرة بعد المرة .

قال زيد :

قال أبو بكر : إنك رجل شاب[1] عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن واجمعه . فوالله لوكلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن

قلت :

كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال :

هو والله خير .

فلم يزل أبو بكر يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم[2].

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . اهـ .

وحفصة هى إحدى زوجات الرسول ، وكانت تحفظ القرآن ، وكانت قارئة كاتبة ، وكان أبوها عمر أوصى إليها .

دستور أبى بكر فى كتابة الصحف :

وسنبين فى إيجاز سريع — ما كان عليه الحال قبل أن يأمر أبو بكر زيد بن ثابت رضى الله عنهما بجمع القرآن وكتابته حتى يظهر ما إذا كانت

(١) كان زيد وقتها فى الثانية والعشرين من عمره .
(٢) سورة التوبة — آية ١٢٨ ، ١٢٩ .

هناك ضرورة ملحة لهذا الجمع أم أن شدة الحرص على كتاب الله والمبالغة فى الاحتياط والاستعداد لما عساه أن يحدث من احتمالات هو الذى أملى ذلك :

١ — توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن كله محفوظ فى الصدور مجموع كتابة فى الصحف والعسب واللخاف والرقاع كما أسلفنا إلا أنه كان مفرقا .

٢ — كان القرآن مرتب الآيات والسور بأمر الرسول وبتوقيف من جبريل بأمر الله تعالى .

٣ — كان القرآن يحفظه جمهور غفير من الصحابة الذين سمعوه من الرسول وتلقوه منه على مدى عشرين عاما أو تزيد .

٤ — كان جمهور الحفاظ من الكثرة بحيث لم يؤثر فى كثرتهم مقتل البعض منهم فى موقعة اليمامة ولكن عمر خشى أن يتكرر ذلك مستقبلا فيقترب الخطر من القرآن بموت الحفاظ وقتلهم فى المعارك . وهى خشية حميدة وحذر دقيق لما عساه أن يحدث وإن لم يكن قد وقع منه شيء . يبين ذلك قول عمر : أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن . . .

من هذا يتبين أنه لم تكن هناك ضرورة لهذا الجمع ، ولكنه الحرص أشد الحرص ، والمبالغة فى الاحتياط ، وسد جميع الذرائع والاحتمالات ، وحياطة كتاب الله بما يناسب قدسيته من تضافر الجهود على حفظه وصيانته .

وهكذا بدأ زيد بن ثابت فى كتابة القرآن وانتهج فى ذلك طريقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر مبالغة فى الاحتياط وتشددا فى التوثق والاطمئنان وتتلخص هذه الطريقة فيما يأتى : —

١ – لا يكتب زيد من القرآن إلا من عين ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ ، مع المبالغه فى الاستظهار والوقوف عند هذا[١] » .

٢ – لا بد من توثيق هذا المكتوب بأن يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك مبالغة فى الحيطة والحذر

٣ – لا بد أن يتفق ما يحفظه الصحابة فى صدورهم مع هذا المكتوب ليظاهر الحفظ الخط والكتابة .

وعلى هذا الدستور الرشيد تم الجمع الكتابى الأول للقرآن بإشراف أبى بكر وعمر وكبار الصحابة وأجمعت عليه الأمة وكان ذلك منقبة خالدة لايزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبى بكر فى الإشراف ، ولعمر فى الاقتراح ، ولزيد فى التنفيذ ، وللصحابة فى المعاونة والإقرار[٢] .

أخرج ابن أبى داود فى (المصاحف) بسند حسن عن عبد خير . قال : سمعت علياً يقول : « أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله .

قال الإمام أبو عبد الله المحاسبى فى كتاب (فهم السنن) ما نصه :

« كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقاً فى الرقاع ، والاكتاف ، والعسب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شىء » اهـ .

---

(١) ابن حجر العسقلانى . فتح البارى جـ ٩ ص ١٠

(٢) مناهل العرفان ص ٢٤٦

وقد رأيت أن ذلك المكتوب الموجود فى بيت الرسول لم يعتمد عليه وحده عند جمع القرآن ونسخه مع أنه فى حرز أمين لا يتطرق إليه أدنى شبهة فى التحريف والتبديل وإنما ضم إلى ذلك — مبالغة فى الاحتياط والاستيثاق — شهادة عدلين على أن هـذا المكتوب هو الذى كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأمره وإملائه ، ثم موافقة المحفوظ فى الصدور لهذا المكتوب فى الأوراق والعسب والرقاع واللخاف وغيرها . ولو اكتفى بالجمع من المكتوب المحفوظ فى بيت الرسول لما كان هناك شبهة فى تحريفه ولكنه الحرص الذى ليس بعده حرص ، والمبالغة فى الحيطة التى ليس بعدها مبالغة، وشدة التحرى والاستيثاق الذى لم يظفر بمثله ولا بالقرب منه كتاب غير القرآن الكريم ، واستمر الوضع على هذه الحال والصحف محفوظة فى رعاية الدولة فى عهد أبى بكر وفى عهد عمر من بعده ثم حفظت فى بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بوصية من أبيها .

* * *

الجمع الثانى للقرآن (جمع عثمان) :

اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتفرق المسلمون فى الأمصار والأقطار ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن ، وبعد العهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون فى كل قطر يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة فأهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، وأهل البصرة يقرءون بقراءة أبى موسى الأشعرى . فكان بينهم اختلاف فى حروف الأداء ووجوه القراءة ، ولم يكن فى ذلك الاختلاف شىء من التحريف أو التبديل وإنما سببه يرجع إلى نزول القرآن على سبعة أحرف تيسيراً على الأمة فى القراءة والأداء ، وقد كان مثله يحدث بين الصحابة والرسول بين ظهرانيهم

ويقول كل منهم : هكذا أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يحتكمون إليـــه فيصوب قراءتهم جميعا ويقول : « فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا » .

ولكن الوضع مختلف الآن فقد انقضى على وفاة الرسول خمس عشرة سنة ولا يجد المختلفون فى وجوه القراءات من يحتكمون إليه فيخطىء بعضهم بعضا ، وقد يستفحل الأمر أحياناً فيصل إلى أن يكفر بعضهم بعضا . ولا يظنن ظان أن الاختلاف بينهم كان فى قرآنية بعض الآيات بحيث يقول البعض بأن هذا من القرآن وينكر الآخرون عليه ذلك فإن شيئا من ذلك لم يحدث قط ، وإنما كان الاختلاف فى نطق بعض الكلمات وزيادة بعض الحروف أو نقص بعضها كقراءة « فتبينوا » و « فتثبتوا » وقراءة « ننشزها » و « ننشرها » وقراءة « يسيركم » و « ينشركم » ونحو ذلك .

وحدث مع اختلاف أهل الأمصار فى قراءاتهم اختلاف مثله ظهر بين أهل المدينة أنفسهم « فقد كان المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل العلماء يتلقونه فيختلفون ، حتى كفر بعضهم بعضا » فبلغ ذلك عثمان ، فتعاظم فى نفسه ، فقال : أنتم عندى تختلفون ؟ . فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا (١) » .

وإليك مارواه البخارى فى قصة هذا الجمع وبواعثه :

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان (أى حذيفة) يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه

---

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى جـ ٩ ص ١٤

الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وقال للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، أ هـ .

وقد استشار عثمان الصحابة قبل أن يبدأ هذا الجمع وحصل على موافقتهم وإجماعهم . روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه « أن عثمان مافعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ من الصحابة » .

دستور عثمان فى كتابة المصحف :

ارسلت حفصة إلى عثمان الصحف التى جمعت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه والتى نسخت مما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما قدمنا - وقد ترددت فى تسليمه هذه الصحف بادىء الأمر حتى عاهدها بردها إليها فسلمتها إليه .

وأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبيد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوا هذه الصحف فى المصاحف .

وقد ضم إلى هذه اللجنة — فيما بعد — آخرون ممن دعت الحاجة إليهم منهم : مالك بن أبى عامر جد مالك بن أنس ؛ وكثير بن أفلح ، وأبى بن كعب ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عباس (١) .

---

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى حـ ٩ ص ١٥

وقد وضع عثمان لهذه اللجنة دستورا نلخصه فيما يأتى :

١ ــ الاعتماد على اللجنة الأولى التى تولت الجمع على عهد أبى بكر ، أى على ربعة حفصة التى كانت مستندة فى نسخها إلى الأصل المكتوب بين يدى النبى بأمره ، وبذلك ينسد باب القالة ، فلا يزعم زاعم أن فى الربعة شيئاً لم يكتب فى المصحف العثمانى ، أو أنه كتب فى هذا مالم يكن فى تلك

٢ ــ أن يكون الجمع على ملأمن الصحابة ، وأن يشترك الجميع فى علم ما جمع ، فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شىء .

٣ ــ يقتصر ــ عند الاختلاف ــ على لغة قريش ، فإنما نزل بلسانهم .

٤ ــ عند كتابة لفظ تواتر ـ عن النبى ـ النطق به على أكثر من وجه ، تكتبه اللجنة خاليا من النقط والشكل بحيث تصلح قراءته للأوجه المتواترة التى نطق بها ، وإذا لم يمكن ذلك تكتب فى بعض المصاحف برسم يدل على قراءة وفى بعضها برسم آخر يدل على القراءة الأخرى .

٥ ــ لا يكتب فى المصحف شىء من : ــ

(ا) ما نسخت تلاوته .

(ب) ما لم يكن فى العرضة الأخيرة بين الرسول وجبريل .

(ج) ما لم يثبت من القراءات ، وما كانت روايته آحاداً .

(د) مالم تعلم قرآنيته ، أو ماليس بقرآن ، كالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة ، شرحا لمعنى ، أو بياناً لناسخ أو منسوخ ، أو نحو ذلك[١] .

---

(١) لبيب السعيد : الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم ص ٧٣ .

٦ — تلتزم اللجنة فى ترتيب آيات كل سورة وفى ترتيب السور بعضها مع بعض بما اتبعه النبى صلى الله عليه وسلم فى العرضة الأخيرة فى السنة التى توفى فيها ، ويعتبر هذا الترتيب توقيفاً من الله عز وجل .

وسارت اللجنة على هذا المنهج الدقيق تحت إشراف ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان وإقرار جمع من الصحابة فما كان يكتب شيء قبل أن يعرض على الصحابة ويقروا أن رسول الله صلى عليه وسلم قرأ على هذا النحو الذى نجده الآن فى المصاحف .

وانتهت اللجنة من مهمتها وكتبت أربع نسخ من المصاحف أرسل عثمان إحداها إلى الكوفة وأخرى إلى البصرة وثالثة إلى الشام وأمسك عنده واحدة ثم أمر بما سوى مصحفه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق ، وبعث إلى الأمصار أنى قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ما عندى ، فامحوا ما عندكم .

ورضى الناس صنيع عثمان رضى الله عنه واستحسن الصحابة فعله فكان إجماعا من الأمة على ما فعل .

قال زيد بن ثابت : فرأيت أصحاب محمد يقولون : أحسن والله عثمان . أحسن والله عثمان[١] . وروى ابن أبى داود بإسناد صحيح عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : « أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، ولم ينكر عليه أحد[٢] » .

وقد قال على رضى الله عنه : « لو وليت ماولى عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل » وفى رواية : « لو لم يصنعه هو لصنعته » .

---

(١) غرائب القرآن للنيسابورى ج ١ ٢٧ .
(٢) المصاحف ١٢ .

ومن هذا نتبين البواعث الحميدة التي دعت إلى هذا الجمع قبل أن تختلف الأمة اختلاف اليهود والنصارى كما يتبين المنهج الدقيق والتحرى الشامل فى استقصاء القراءات التى تواترت عن الرسول وجمعها فى مصحف عثمان رضى الله عنه ، ومما يوقفنا على مبلغ هذه الدقة وهذا التحرى اختيار عثمان زيدَ ابن ثابت وهو الذى تولى رئاسة اللجنة فى الجمع الأول وبذلك اجتمع له التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابته القرآن بين يديه ، وشهوده العرضة الأخيرة للقرآن ، وجمعه فى الصحف على عهد أبى بكر هذا فضلا عما هو معروف به من كمال الدين وحسن السيرة والعدالة والعلم ويشهد لمنزلته قول أبى بكر له : « إنك رجل شاب ، عاقل ، لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى » ، فأثبت له ـ كما يقول ابن حجر العسقلانى[1] ـ أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك :

كونه شابا : فيكون أنشط لما يطلب منه .

كونه عاقلا : فيكون أوعى له .

كونه لا يتهم : فتركن النفس إليه .

كونه كان يكتب الوحى : فيكون أكثر ممارسة له .

وبذلك كان جمع القرآن على عهد عثمان موصولا بجمعه على عهد الرسول وعهد أبى بكر من بعده وكان عمله حلقة فى هذه السلسلة المباركة وقد ضم عثمان إلى زيد خيرة الصحابة والحافظين لكتاب الله حتى يحظى هذا العمل الجليل بإجماع الأمة وتتضافر الجهود من حوله للبلوغ به إلى مرتبة الكمال.

ورضى الله عن عثمان ، فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الأمة ، وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ١٠ .

يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم[١] .

الجمع الصوتى للقرآن : ـ

يقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٢] » . أكد الله فى هذه الآية الكريمة تكفله بحفظ كتابه المنزل ، وكان من حفظ الله تعالى له أن يسر سبيل الجمعين الكتابيين فى عهد أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما ، كما تجلى حفظ الله لكتابه فى إيجاد أسباب هذا الحفظ وتوفيق المسلمين جيلا بعد جيل فى الذود عن كتاب الإسلام الأول .

فما حظى كتاب فى الأولين والآخرين بمثل ما حظى به القرآن الكريم من العناية والتكريم . وهكذا نشهد كل يوم جهدا حميدا يضاف إلى جهود السابقين فى سبيل المحافظة على القرآن وصيانته .

وكان من الجهود الموافقة التى حظيت بإعجاب المسلمين واستحسانهم فى فى مشارق الأرض ومغاربها ذلك الجهد المشكور الذى بذلته الجمهورية العربية المتحدة فى تسجيل القرآن الكريم وجمعه صوتيا بالقراءات المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من نتائج ذلك ظهور « المصحف المرتل » المسجل على اسطوانات بأصوات مشاهير القــــراء وأساتذتهم من علماء القراءات الممتازين . وقد أضاف هذا الجمع الصوتى للقرآن وسيلة ناجحة لتيسير حفظه وتلقيه مشافهة وإتقان قراءته وترتيله .

والثابت لدى المسلمين أن الوسيلة المثلى لنقل القرآن الكريم عبر الدهور كانت وما زالت هى روايته وتلقيته مباشرة وشفاها ، فماً لفم . وهذا هو المعتمد عند علماء القرآن ، لأن فى القراءة مالا يمكن إحكامه إلا عن طريق السماع

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ص ٢٥٤ .
(٢) سورة الحجر آية (٩)

والمشافهة. ومن أجل هذا عنيت جامعة الأزهر بتدريس تجويد القرآن الكريم وحسن ترتيله لطلابها على يد علماء ممتازين من المتخصصين فى علوم القرآن وقراءاته .

ومن هنا كان الجمع الصوتى للقرآن عملا حميدا عم نفعه وظهرت فائدته وبخاصة فى البلاد الإسلامية غير العربية التى يعز فيها القارىء المجود المتقن[١] ولا يكاد المسلمون فيها يجدون من يصحح لهم نطق آيات القرآن ويضبط لهم مخارج حروفه .

ولقد كان للجمهورية العربية المتحدة بهذا العمل المجيد فضل السبق إلى تيسير تلقى القرآن وحسن ترتيله فقدمت بذلك إلى المسلمين فى جميع بقاع الأرض مكرمة تكتسب عظمتها وجلالها من عظمة كتاب الله وجلاله — وإنه لفضل يذكره لها المسلمون جيلا بعد جيل . وكان لصاحب[٢] هذه الفكرة الجليلة من توفيق الله ومنته ما يغبطه عليه أولو الفضل وهو توفيق موصول بأجر الله ومثوبته . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

---

(١) فى عام ١٩٦٤ ميلادية أخبرنى الشيخ إبراهيم بن ايناس زعيم المسلمين فى غرب أفريقيا أنه استمع إلى المصحف المرتل ثلاثا وثمانين مرة حتى حفظ القرآن على رواية حفص وهى الرواية التى سجل بها المصحف المرتل وقتئذ وهى قراءة أهل مصر والشام .

(٢) صاحب الفكرة الذى خططها وأشرف على تنفيذها هو الأستاذ لبيب السعيد المدير العام لتخطيط الدعوة الاسلامية بوزاره الأوقاف والرئيس السابق لجمعيات المحافظة على القرآن الكريم وقد بدأ الدعوة إلى هذا المشروع فى عام ١٩٥٩ وقد كتب عن الفكره والتنفيذ وتاريخياته والبواعث والمخططات فى كتابة : « الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم » .

سورة النساء

١ — سورة النساء هي السورة الرابعة فى ترتيب المصحف يسبقها سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران .

وقد سبق أن بينا لك أن ترتيب السور كترتيب الآيات بتوقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقاه عن جبريل عن الله رب العالمين وقد بلغه الرسول كما أمره الله تعالى . فيجب علينا أن نلتزم هذا الترتيب وأن نحتفظ بقدسية المصحف فلا نحاول أن نبدل فى ترتيبه .

قال القرطبي :

« فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن رب العالمين ، فمن أخر سورة مقدمة ، أو قدم أخرى مؤخرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات [١] » .

٢ — وسورة النساء مدنية أى نزلت بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة إلى المدينة ، وقد روى البخارى فى صحيحه عن عائشة أنها قالت : ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن المعروف أن رسول الله بنى بعائشة فى المدينة فى السنة الأولى على رأس ثمانية أشهر من الهجرة .

٣ — ويظهر فى السورة خصائص السور المدنية فهى تتضمن أحكاما تفصيلية كثيرة منها أحكام اليتامى ، والأموال ، والمواريث ، والنساء ، والقتال ،

(١) ص ٦٠ ج ١ تفسير القرطبي .

وتحدث عن أهل الكتاب ، وعن المنافقين ، وعن الهجرة، وغير ذلك مما هو تفصيل للأحكام الشخصية والمدنية وكل ذلك يؤكد أنها من السور المدنية.

٤ — أما خصائص السور المكية وهى التى نزلت قبل هجرة الرسول والمسلمين إلى المدينة — فمنها الإيجاز فى العبارة وتقرير كليات الدين والاحتجاج لها والنضال عنها وهى : التوحيد ، والبعث ، وعمل الخير ، وترك الشر ، ومعظم الحجاج فيها يرمى إلى دحض الشرك وتثبيت الإيمان .

ومع هذه الأدلة التى تقطع بأن السورة مدنية فقد وجدت روايات تخالف ذلك ليس هنا مقام الرد عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

البسملة :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكتب (باسمك اللهم) حتى أمر أن يكتب باسم الله فكتبها فلما نزلت « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » كتب (بسم الله الرحمن) فلما نزلت « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كتبها(١) .

وفيها ثلاثة مباحث :

الأول : فى عدها آية من سور القرآن .

الثانى : فى معناها .

الثالث : ندب الشرع إلى ذكرها فى أول كل فعل .

المبحث الأول

لا خلاف فى أن البسملة آية من القرآن الكريم .

ولا خلاف أيضاً فى أن البسملة المذكورة فى سورة النمل فى قوله تعالى : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » بعض آية من هذه السورة.

وإنما الخلاف فى عدها آية من كل سورة ذكرت فى افتتاحها وسنقتصر على ذكر ثلاثة أقوال فى هذا الخلاف :

١ – قال الشافعى : هى آية من الفاتحة ومن كل سورة غير سورة التوبة

٢ – قال مالك وأبو حنيفة : ليست آية من الفاتحة ولا غيرها وإنما هى آية مستقلة أنزلت لبيان رءوس السور وللفصل بينها .

٣ – قال أحمد وبعض الشافعية : هى آية من الفاتحة دون غيرها .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٩٢ .

ولكل من هؤلاء دليله الذى يستند إليه فمن أراد معرفة ذلك فعليه بالمطولات من كتب التفسير .

المبحث الثانى

(بسم) الباء ومعناها الاستعانة أو المصاحبة تتعلق بفعل محذوف يناسب العمل المبتدأ به ، فالقارىء يقدر باسم الله أقرأ ، والآكل يقدر باسم الله آكل وهكذا . وقد حذفت ألف اسم فى الكتابة كحذفها فى النطق تيسيراً لكثرة كتابتها . والإسم مراد به الذات كقوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » . (الله) هو المعبود بحق ولا يطلق هذا الاسم على أحد سواه (الرحمن) فعلان من الرحمة ولا يطلق على غير الله (الرحيم) فعيل من من الرحمة ويطلق على غير الله كإطلاقه عليه تعالى ومن ذلك قول الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم « بالمؤمنين رءوف رحيم » وفى الجمع بينهما توكيد .

قال محمد بن يزيد : إنه تفضل بعد تفضل ، وإنعام بعد إنعام ، وتقوية لمطامع الراغبين ووعد لا يخيب آمله[1] .

المبحث الثالث

ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أول كل فعل وجاء ذلك فى الكتاب والسنة . قال الله تعالى : « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه » وقال : « بسم الله مجريها ومرساها » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أقطع » أى مقطوع البركة منزوعها . وقال : أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله . وخمر[2] إناءك واذكر اسم الله ، وأوك[3] سقاءك واذكر اسم الله » . وقال لعمر بن أبى سلمة : « يا غلام سم الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك » . وفى السنة كثير غير هذا .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ١٠٥ (٢) التخمير : الغطاء . (٣) الوكاء : الخيط الذى تربط به الصرة أو الكيس أو القربة — أوك : اربط سقاءك بالوكاء .

يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى
تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَءَاتُوا۟
ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ
إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) .

(بث) نشر وفرق فى الأرض (تساءلون به) يسأل به بعضكم بعضا قضاء حاجته فيقول : أسألك بالله . (والأرحام) جمع رحم وهى القرابة (رقيبا) حافظا مطلعا على جميع ما يصدر منكم (اليتامى) جمع يتيم وهو من فقد أباه قبل البلوغ (حوبا كبيرا) إثما وذنبا عظيما .

المعنى العام :

نادى الله الخلائق جميعا وأمرهم بتقواه والخوف منه بطاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه فهو ربهم الذى ملك أمرهم ورباهم فى مزيد نعمه وهو القادر الذى خلقهم من ذات واحدة هى آدم عليه السلام وخلق من آدم زوجه حواء ، ونشر وفرق فى الأرض منهما على سبيل التناسل والتوالد رجالا كثيرا ونساء فكانوا جنسا واحدا تقوم مصلحته بتعاون أفراده واتحادهم وحفظ بعضهم حقوق بعض .

وفى التذكير بقدرة الله الخالق ما يستوجب امتثال الناس لأمره واستجابتهم لماذكره بعدذلك من الأمر بصلة الأرحام واتقاء قطعها والإساءة إليها ، ورعاية الأيتام والحرص على مصلحتهم ورعاية شئون أموالهم بما يصلحها وينميها والبعد عن كل مايضر باليتيم أو يضيع شيئا من مصالحه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن صلة الأرحام : «الرحم معلقة بساق العرش تقول من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » ويقول فى شأن رعاية الأيتام « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وجمع بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

ومن شدة عنايته تعالى باليتيم والمحافظة عليه وعلى ماورثه من مال أمر بإيتاء اليتامى أموالهم والاعتراف بملكيتها لهم وعدم منازعتهم فيها (وآتوا اليتامى أموالهم) ونهى عن أفعال كان يفعلها الأوصياء فيها إضرار بمال اليتيم ومصلحته فنهاهم عن أن يأخذوا الجيد من مال اليتيم ويضعوا بدله الردىء من أموالهم ومن ذلك مايحدث فى أيامنا من الاستيلاء على أرض اليتامى الجيدة وإعطائهم أرضا ضعيفة غير صالحة للزرع استغلالا لضعفهم وطمعا فى أموالهم . وقد خرج هذا النهى على وجه ينفرهم من هذا العمل ويدعوهم إلى الامتثال حيث أوضح أنهم بذلك يأخذون الخبيث الحرام ويتركون الطيب الحلال فهم خاسرون فيما يفعلون . فمغانم الدنيا بلاء ونقمة إذا أوردت صاحبها موارد الهلاك فى الآخرة (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب[1]) . ونهاهم كذلك عن أن يضموا اموال اليتامى إلى أموالهم وينفقوا منهما مختلطين قلة مبالاة وتبديدا لمال اليتيم وعبر بالأكل لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) فالنهى عن أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع (إنه كان حوبا كبيرا) إن ماتفعلونه من تبدل الحرام بالحلال واستباحة إنفاق مال الأيتام كان إثما عظيما وذنبا عند الله كبيرا .

---

(١) الباء فى هذا التعبير تدخل على الشىء المتروك ومنه قوله تعالى (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — الناس جميعاً ينتسبون إلى أصل واحد فلا تفاضل بينهم بالأجناس والألوان والأنساب وليس لقوم أن يرثوا الجاه والعز بينما غيرهم يرث الفقر والذل فقد قضى الإسلام على هذه التفرقة وقرر مبدأ المساواة فى الإنسانية واضحا جليا فى أول آية من سورة النساء وذكر أسس هذه المساواة : رب واحد خلقهم ورباهم ، وأصل واحد ينتمون إليه .

٢ — الأرحام والقرابات تجب صيانتها والمحافظة عليها والبعد عن كل ما يسبب قطعها وتوهين صلاتها .

٣ — الأمر برعاية اليتيم والمحافظة على ماله وتجنب كل تصرف يلحق الضرر به رحمة بضعفه واتقاء لغضب الله وسخطه .

وفى تقرير مبدأ المساوة والأمر برعاية رابطة الإيمان ورابطة الرحم بين الناس والدعوة إلى حماية الضعيف والبعد عن استغلاله مايحفظ للمجتمع سلامته ويحقق سعادته .

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) .

(ألا تقسطوا) ألا تعدلوا — يقال : أقسط إذا عدل وقسط إذا جار وظلم (ما ملكت أيمانكم) من الإماء (ذلك) الاقتصار على واحدة أو التسرى (أدنى) أقرب (ألا تعولوا) ألا تميلوا عن الحق فتظلموا .

المعنى العام :

تحدثت سورة النساء عن الضعفاء الثلاثة : اليتيم ، والمرأة ، والسفيه وبينت ما يجب فى معاملتهم رعاية لهذا الجانب الضعيف من المجتمع حتى يكون مجتمعا قوياً كما أراده الله ، وقد سبق الحديث عن اليتامى وحفظ أموالهم ، وجاء الحديث فى هذه الآية عن أمر يتعلق بنفس اليتامى من الإناث أولا وبمالهن ثانيا فقد روى فى الصحيحين عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه الآية « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى .. » فقالت : يا ابن أختى . هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها يشركها فى مالها ، ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها فلا يعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء .

وعلى هذا فالمعنى : وإن علمتم أو غلب على ظنكم عدم العدل فى أموال اليتيمات وحسن معاشرتهن وتسليمهن حقوقهن إذا تزوجتموهن فإن أمامكم متسع بأن تنكحوا ما طاب لكم من النساء غيرهن اثنتين أو ثلاثا أو أربعا فإن الله لم يضيق عليكم فى أمر الزواج حتى تقفوا عند التزوج باليتيمات اللاتى تخافون ظلمهن بهذا الزواج .

وإذا علمتم أو غلب على ظنكم عدم العدل بين الزوجات فالزموا زوجة واحدة أو ماملكت أيمانكم من الإماء فإن ذلك أقرب إلى عدم الميل عن الحق والجور والظلم لليتيمات أو الزوجات .

ومن هذا يتبين أن الآية تدعو إلى العدل وتحذر من الجور وعدم الإقساط فى اليتامى وفى النساء فإن كلا منهما مفسدة فى نظام الاجتماع .

ومن هذا يتبين أيضا أن الآية لم تعرض لتقرير تعدد الزوجات أصالة ولم يأت سياقها من أول الأمر لتقرير إباحة التعدد وإنما ذكرت هذه الإباحة فى معرض الحديث عن ظلم اليتيمات وأن للأولياء مندوحة عن ذلك ومتسع بزواج ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ثم جعلت إباحة التعدد مشروطة بالعدل بين الزوجات ،فإن خفتم أن لاتعدلوا فلاتعددوا واكتفوا بزوجة واحدة فإن ذلك أقرب إلى حمايتكم من الظلم وعقابه .

والعدل المطلوب هناهو العدل بين الزوجات فى القسم والنفقة والكسوة والمعاملة وغير ذلك من الأمور التى يدخل فى استطاعة الإنسان العدل فيها أما الميل القلبى فلا سلطان له عليه ولا يدخل تحت طاقته ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يميل فى آخـــر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشىء دونهن بغير إذنهن ورضاهن وكان يقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لاأملك ، أى ميل القلب. وهذا الميل هو الذى عبر القرآن بعدم استطاعة العدل فيه بقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نعرض فى إيجاز سريع لموضوع تعدد الزوجات وما ثار حوله من شبهات .

تعدد الزوجات :

كانت هذه الآية مصدرا لتشريع تعدد الزوجات فى الإسلام، وهى مسألة

كثر فيها الكلام قديما وحديثا واتخذها أعداء الإسلام -عن جهل أو سوء قصد- سبيلا للطعن فى التشريع الإسلامى ، مع أن الآية لم تذكر التعدد تشريعا مقصودا لذاته وإنما ذكرته طريقا للخلاص من تخوف الوقوع فى ظلم اليتيمات حين التزوج بهن وتتخلص الشبهات التى أثارها الحاقدون فيما يأتى :-

١ — فى عصور الهمجية وعند القبائل المتوحشة كان النساء حقا مشاعا للرجال بحسب التراضى ثم دخله شىء من الاختصاص فكان نساء القبيلة لرجالها دون رجال قبيلة أخرى ثم زاد الاختصاص بزيادة التقدم البشرى حتى اختص الرجل الواحد بعدة نساء من غير تقييد بعدد . وعلى هذا فإن نهاية الارتقاء هو أن يختص الرجل الواحد بامرأة واحدة .

٢ — فى التعدد من المفاسد ما يعم ضرره الزوجين والأولاد والأصهار ويتعدى ذلك إلى المجتمع بأسره فيجب منعه تطبيقا لقاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ولقد كان لدعايات الغرب المتعصب أثر كبير فى توجيه بعض الأفكار إلى نقد تعدد الزوجات حتى حاول فريق من أبناء المسلمين - ولا يزالون يحاولون - وضع تشريع يمنع التعدد أو يقيده بما لم يقيده به الله .

كما حاول فريق آخر أن يثبت تحريم التعدد بنص القرآن فقال : إن الله تعالى يقول : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . ثم قال فى آية أخرى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ثم يخلص هذا الفريق فى زعمه إلى تحريم التعدد بقوله : إذا كان التعدد مباحا بشرط العدل والعدل غير مستطاع فالتعدد غير مباح .

ولبيان وجه الحق والعدل من كتاب الله وسنة رسوله وعمل صحابته نقول:

١ — نحن لا نسلم أن نهاية الارتقاء البشرى أن يختص الرجل الواحد بامرأة واحدة فإن هناك من الأسباب الاجتماعية والدوافع الطبيعية والنفسية والصحية ما يجعل حاجة الرجل إلى تعدد الزوجات ضرورة من ضرورة حياته . ولا ارتباط بين التعدد وبدائية المجتمع فإن ارتباط الرجل بأكثر من امرأة واحدة ظاهرة اجتماعية موجودة فى كل البلاد وفى جميع العصور تحت اسم تعدد الزوجات أو تحت اسم تعدد الخليلات وقد حرمت أوربا تعدد الزوجات فاتخذ رجالها خليلات وأنجبوا منهن أبناء غير شرعيين تحملت الدولة عبء كفالتهم وتربيتهم بعد ما قذف بهم الآباء والأمهات ، وإنها لمغالطة كبرى أن نربط تعدد الزوجات بالمجتمع البدائى فى الوقت الذى نعتبر فيه تعدد الخليلات من مظاهر المجتمع الراقى المتحضر !

٢ — وما يحتج به خصوم التعدد من المفاسد والأضرار فليس ذلك ناشئا من إباحة التعدد مع اشتراط العدل المستطاع بين الزوجات وإنما هو ناشىء من جور الرجل وتفضيل امرأة وأولادها على أخرى وأولادها مما يزرع العداوة والبغضاء بين أفراد الأسرة الواحدة ، كما هو ناشىء من جهل النساء بالدين وآدابه مما يدفعهن إلى الغيرة بكل آثارها المدمرة . وقد كان للتعدد فى صدر الإسلام فوائد أهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لأن الدين كان متمكنا فى نفوس النساء والرجال . . . ولو ترين النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هناك ضرر على الأمه من تعدد الزوجات[1] .

والذين يحاولون تقييد التعدد أو منعه إنما يغفلون عن الفوائد والمزايا

---

(١) تفسير المنار ج ٤ ص ٣٤٩ .

التى يحققها وعن الأسباب التى تدعو إليه وقد علمها العليم الخبير . ومن هذه الأسباب ما يتصل بالرجل كالرغبه فى الذرية مع عقم الزوجة ، والرغبة فى إحصان نفسه مع امرأة لاتعفه ، والرغبة فى كفالة قريبة لاتجد زوجا أو أرملة أخ ، أو قريب لها أولاد منه ولاتجد عائلا ـ ومنها مايتصل بالمرأة ؛ كعقم الزوجة ، أومرضها مرضا يمنعها من تلبية حاجة الزوج وليس لها عائل سواه فترى فى زواجه بثانية مع الإبقاء عليها فى عصمته خيرا من طلاقها ومفارقتها . وبقاء الزوجة العقيم أو العاجزة مع زوجها الذى تزوج بأخرى يفتح لها باب الأمل فى الشفاء واستئناف الحياة . وما تلقاه من غيرة الضرة أهون بكثير مما تلقاه من شقاء الطلاق أو التطليق ، وإباحة التعدد للرجل فى مثل هذه الظروف أفضل وأكرم وأشرف من تركه ينغمس فى علاقات آثمة تعكس على حياته وحياة زوجه وأولاده أسوأ الآثار، ومصلحة المجتمع فى رعاية ضعفائه وحماية رجاله من الرذيلة وصيانة أخـــلاقه تقتضى إباحة التعدد .

وهناك من الأسباب العامة التى تتصل بسلامة المجتمع وصيانته من الآفات الاجتماعية مايجعل تعدد الزوجات هو الحل الأمثل . فمن ذلك زيادة عدد العانسات والأرامل والمطلقات فى العصر الحديث زيادة من شأنها أن تصنع بطالة فى الحياة الجنسية لعدد كبير من النساء . فقد ذكرت إحصائية عام ١٩٦٠ فى مصر أنه يوجد عدد ٢ مليون ، ٢٩٨ ألفا من النساء فى سن الزواج وفى غير عصمة رجل على الرغم من أن تعدد الزوجات كان يستوعب ١٤٣ ألف أنثى أخرى . ولا شك أن هذا العدد الضخم من النساء غير المتزوجات يعيش حياة القلق والضيق . وقد حاول المفكرون إيجاد حل لهذه المشكلة ويمكن تلخيص هذه الحلول فى نظم ثلاثة : —

١ — نظام ينادى بشيوعية المعاشرة الجنسية .

٢ — وآخر ينادى بالزواج الفردى مع إباحة المعاشرة الجنسية فى غير زواج بشروط معينة .

٣ — ونظام ثالث يسمح بتعدد الزوجات إلى جانب الزواج بواحدة ولا مكان فيه لمعاشرة جنسية بغير زواج .

وسنوجز الكلام عن كل نظام من هذه النظم الثلاثة : —

فالنظام الذى ينادى بشيوعية المعاشرة الجنسية ينزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان فيجعل الرجل كغيره من الحيوانات التى لاتهتم بإناثها وليس يربطها بالإناث أى رباط عاطفى أو نفسى ، وليس عليها من مسئولية تجاه الأنثى . إنما هو لقاء عابر يشبع نزوة طارئة ثم يفترقان ، ويجعل المرأة كذلك كالدابة ظهرها ذلول لكل راكب وليس لها من حق أو كرامة أو حماية فى المجتمع الذى تعيش ، والأولاد كنتاج الحيوان لاتربطهم رابطة ولا تضمهم أسرة ولا يغمرهم حنان أب أو أم ويكفيهم من دنياهم لقمة عيش تعطيها لهم الدولة صاحبة هذا النتاج كما يفعل صاحب الأغنام بخرافة ونعاجه . فهل هذا النظام يتفق مع كرامة الإنسان ؟

أما النظام الذى ينادى بالزواج الفردى فإن البلاد التى أخذت به وقع رجالها ونساؤها فى علاقات غير مشروعة وكثرت الملاهى الليلية والنوادى التى تنظم لقاء الرجل بالمرأة وتبادل الزوجات بين الأزواج وأمام انتشار هذه العلاقات اضطرت قوانين هذه البلاد إلى إسقاط العقاب على ارتكاب الرجل أو المرأة جريمة الزنا إذا تمت بالتراضى أو بعيدا عن فراش الزوجية أو فى أمكنة مرخص لها من الدولة بممارسة الفجور ، وكأن المجتمع لايعنيه هذا الأمر فى شىء . وبذلك تحول مجتمع الزوجة الواحدة إلى مجتمع يتعدد فيه الصديقات والخليلات والعاشقات ويزداد فيه الأولاد غير الشرعيين . وتنتشر فيه الأمراض السرية . وقد فتنت بعض [1] الدول الإسلامية

(١) هذه الدولة هى تركيا وقد فعلت مثل ذلك تونس وحرمت التعدد بالمرسوم التشريعى رقم ٥٩ ، الصادر فى ١٩٥٣/٩/١٧ .

بنظام الزوجة الواحدة وتحريم تعدد الزوجات فأصدرت فى نوفمبر ١٩٢٦ قانونا يمنع تعدد الزوجات ، وبعد ثمانى سنوات وقف وزير خارجيتها فى المجلس الوطنى الكبير يقدم إحصاء بنتائج هذا المنع يكشف عن وجود المآسى الأخلاقية الآتية :

٣٢٢٩٣١٨	ولادة سرية
٩٣٣٢٣٥	زواج سرى
١٨٤٩٥١١	وفاة مكتومة

فهل يرضى بهذا المصير مجتمع إسلامى ؟ !

وبين الإفراط والتفريط يكون الوسط العدل ، فبين نظام شيوعية النساء ونظام الزوجة الواحدة يأتى نظام الزوجة الواحدة مع إباحة تعدد الزوجات يعترف بالواقع الإنسانى ويقدم الحل الاجتماعى السليم لمشكلة بطالة الحياة الجنسية عند المرأة فى علاقة نظيفة طاهرة لا تجرى فى خفاء ضد القانون ولا فى علانية فاجرة فى دور الدعارة ومتاجر الأعراض ولا تنتج أولاداً غير شرعيين تضيق بهم الأمة كما ضاق بهم آباؤهم من قبل (١) .

* * *

والذين يحاولون أن يثبتوا أن القرآن الكريم يحرم تعدد الزوجات على النحو الذى سبق بيانه إنما يحاولون عبثا ويحرفون الكلم عن مواضعه فما كان الله يرشد إلى تزوج العدد من النساء عند الخوف من ظلم اليتامى ويضع العدل شرطا فى التعدد بأسلوب يدل على استطاعته والقدرة عليه ثم يعود وينفى استطاعته والقدرة عليه .

والمعنى الذى يتفق وجلال التنزيل وحكمة التشريع أنه لما نزل قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا ... » فهم منه أن العدل واجب بين الزوجات

(١) بتصرف من كتاب دراسة فى قضية تعدد الزوجات للدكتور عبد الناصر العطار .

وتبادر إلى النفوس أن المطلوب هو العدل الكامل الذى لا يتحقق إلا بالمساواة فى كل شىء فتحرج بذلك المؤمنون إذ هناك من الأشياء ما لا يستطيعون العدل فيه كمحبة القلوب وميل النفوس فالعدل بهذا المعنى غير مستطاع فجاءت الآية الثانية تبين العدل المطلوب « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما » وبذلك رفع الحرج عن قلوب المؤمنين ولم يكلفهم فوق ما فى وسعهم فكانت الآية الثانية مبينة للمراد من العدل المطلوب فى الآية الأولى ، وظهر جلياً أن الآية الثانية تتعاون مع الآية الأولى على تقرير مبدأ التعدد بما يزيل التحرج منه(1).

على أن القرآن لم يدع إلى التعدد ولم تنزل فيه آية كاملة لتقرير إباحته إنما جاء ذكره ضمن الكلام عن رعاية اليتامى وعدم ظلمهم، وقد كان التعدد معروفاً قبل الإسلام بغير حدود ولا قيود فجاءت هذه الآية تحدد العدد بأربع وتقيد التعدد بالعدل بين الزوجات ، وفى ظل هذه المبادىء يمكن القول بأن الاسلام ترك باب التعدد مفتوحا وجعل الدخول منه مقيداً بشرط، محدوداً بعدد فلم يوصده أو يفتحه فى وجه الناس جميعاً بغير قيد ولا حد كما كان من قبل ، فمن فقد شرط العدل فيه أو كان غير ذى حاجة إلى أخرى فليقتصر على زوجة واحدة ، على أن تقرير الحاجة ومعرفة القدرة على العدل ذلك أمر مرجعه إلى الأفراد أنفسهم وليس فى مقدور حاكم أو قاض أن يعرف بوسائله وتحرياته مدى حاجة الرجل إلى الزوجة الثانية أو مدى قدرته على العدل بين زوجاته فى مستقبل حياته .

ومن خاف عدم العدل بين زوجاته ومع ذلك تزوج ثانية فإنه يكون آثما ولكن العقد يقع صحيحاً . ولا يفهم أحد أن العقد فى هذه الحالة يكون

---

(1) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت .

باطلا أو فاسداً فإن الحرمة عارضة لاتقتضى بطلان العقد فقد يخاف الظلم ولا يظلم وقد يظلم ثم يتوب فيعيش عيشة حلالا [١] .

وفى ظل هذا التشريع الحكيم عدد النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته ، وعدد الصحابة والتابعون زوجاتهم ، ودرج المسلمون فى جميع عصورهم وبجميع طبقاتهم يعددون الزوجات متى شاءوا ، ويرونه مع العدل الذى طلبه الله من الأزواج — حسنة من حسنات الرجال إلى النساء ، وحسنة إلى الرجال أنفسهم ، وحسنة إلى الأمة جميعاً [٢] .

ما يؤخذ من الآية :

١ — وجوب العدل فى نفوس اليتامى كما وجب العدل فى أموالهم فلا يتزوج يتيمة إذا خاف ظلمها والطمع فى مالها .

٢ — أباح الإسلام تعدد الزوجات إلى أربع وكان ذلك من مفاخره التى حفظت المجتمع الإسلامى من المخادنة واتخاذ الخليلات .

٣ — التعدد مشروط بالعدل بين الزوجات فى كل أمر يستطاع العدل فيه فمن خاف عدم العدل فليتزوج واحدة أو يقتصر على ما ملكت يمينه من الإماء .

٤ — حددت الآية التعدد بأربع وقيدته بشرط العدل وقد كان قبل الإسلام بغير حد ولا قيد وكان من يسلم وتحته أكثر من أربع نسوة يأمره الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يمسك أربعا ويسرح الباقى ، حدث ذلك مع غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، ونوفل بن معاوية الديلمى كان متزوجا خمسا ، وقيس بن الحارث الأسدى كان عنده ثمان منهن .

* * *

(١) الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار حـ ٤ ص ٣٥٠ .

(٢) الشيخ محمود شلتوت فى كتابه ، الاسلام عقيدة وشريعه .

وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

(آتوا) اعطوا (صدقاتهن) مهورهن (نحلة) عطية طيبة بها نفوسكم (هنيئاً مريئاً) سائغاً حميداً أو حلالا طيباً .

(السفهاء) المبذرون أموالهم الذين لايحسنون وجوه إنفاقها والتصرف فيها (قياما) تقوم بها أمور معايشكم (وارزقوهم) أنفقوا عليهم (قولا معروفا) قولا تسكن إليه النفس وتحبه .

المعنى العـام :

(وآتو النساء صدقاتهن نحلة) الخطاب للأزواج يطلب الله منهم أن يعطوا النساء مهورهن عطية طيبة بها نفوسهم بدون مقابلة عوض فليس المهر ثمناً للمرأة أو جـــزء منها وليس عقد الزواج عقد معاوضة كالبيع والشراء . إنما المهر عطية الرجل للمرأة إظهاراً لكرامتها عنده ومودته لها وحرصه عليها ، ولذلك يكون واجباً وإن اتفقا على الزواج بغير مهر ، ولم يشرع الله أن تدفع المرأة شيئاً للرجل عند زواجها كما يحدث عند بعض الطوائف وذلك حتى لاتعلن عن رغبتها فى الرجل وميلها إليه مما يخدش حياءها ويؤدى إلى ابتذالها ومهانتها .

وقد يكون الخطاب فى الآية للأولياء يطلب الله منهم أن لا يأخذوا شيئاً من مهور بناتهم وغيرهن ممن تحت ولايتهم — كما كان يفعل أهل الجاهلية — وأن يعطوهن مهورهن التى دفعها الأزواج عن طيب نفس غير

منقوصة ولا متطلع إلى شيء منها (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) فإن طابت نفس المرأة وتنازلت عن شيء من مهرها لزوجها أو وليها دون إكراه أو استحياء فلا حرج فى الانتفاع بما تنازلت عنه ولا إثم فيه .

ثم تحدثت الآية التالية عن الصنف الثالث من الضعفاء وهم السفهاء . فأوردت النهى عن إعطاء السفهاء الذين لا يحسنون وجوه التصرف شيئاً من المال الذى جعل الله به غناء النفس وقضاء الحاجات وقيام معايش الناس فى الحياة (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) وفى عدم إعطائهم المال مصلحة لهم بحفظ أموالهم والقيام على إصلاحها ، وطلبت من الأولياء أن يكفوهم حاجاتهم ويعاملوهم معاملة يسكنون إليها وتطمئن بها خواطرهم (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا) انفقوا عليهم فى مختلف شئونهم من طعام ومسكن وتعليم ومداواة وكسوة وغير ذلك ، وأحسنوا مخاطبتهم بالقول الحسن الذى يشعرهم بالرعاية والحنان ، فالصغير والسفيه من أحوج الناس إلى القول الطيب الذى يربى ذاتهم ويقوى شخصيتهم ولا يفقدهم الثقة بأنفسهم مع الإرشاد إلى ما هو خير ونافع والتحذير مما هو شر وفساد .

وعبرت الآية بقولها : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ولم تقل أموالهم لإشعار الأولياء والأوصياء بأن مال اليتيم والسفيه تجب صيانته والحرص عليه بنفس الدرجة التى يحفظون ويصلحون بها أموالهم . وفى ذلك إبراز لمعنى التكافل فى الأمة حتى تكون مصلحة الفرد فيها عين مصلحة الآخرين .

وجاء تعبير الآية (وارزقوهم فيها) للإيحاء بأن الوصى مطالب بأن ينمى مال اليتيم والسفيه ويستثمره حتى تكون نفقاته من الربح لا من أصل المال ولو كان التعبير : وارزقوهم منها لما أفاد هذا المعنى .

قال صاحب(١) الكشاف : «وارزقوهم فيها واكسوهم »أي اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح، لا من صلب المال . فلا يأكلها الإنفاق » اهـ وفى معنى الآية قوله صلى الله عليه وسلم : (ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ولا يتركه حتى تأكله الصدقة) أى الزكاة .

ما يؤخـــذ من الآيات :

١ ــ المهر حق خالص للمرأة لا يحل للزوج ولا للولى أن يأخذ شيئاً منه إلا عن طيب نفس منها .

٢ ــ يحجر على السفيه كبيراً أو صغيراً ذكراً أو أنثى فلا يدفع المال إليه خشية إضاعته وتبديده .

٣ ــ المال قوام معيشة الناس فى حياتهم فعليهم صيانته من التبذير والإسراف وسوء التصرف .

٤ ــ من ولى مال يتيم أو سفيه فليعمل على استثماره حتى لا يفنى من النفقة .

٥ ــ على الولى أن ينفق على من ولى أمره فيما يحتاجه ويصلح شأنه .

٦ ــ وجوب الإحسان فى القول إلى اليتيم والسفيه بما يسكن نفسه ويطيب خاطره مع نصحه وإرشاده إلى ما يهذب خلقه ويكفل له حسن المستقبل .

(١) محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ حـ ١ ص ٢٤٧ .

وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦) .

(وابتلوا اليتامى) اختبروا عقولهم وتصرفاتهم (آنستم) أبصرتم وتبينتم (رشدا) هداية وصلاحا (إسرافاً) مجاوزة للحد (وبدارا) مبادرة ومسارعة (فليستعفف) فليطالب نفسه بالعفة ويحملها عليها (حسيبا) مراقبا ومطلعا يحاسبكم على ما أظهرتم وما أسررتم .

المعنى العام :

بعد أن أوجبت الآية السابقة إرشاد اليتامى إلى وجوه الخير وتحذيرهم من الفساد والشر تربية لهم بالقول المعروف أرشدت هذه الآية إلى التربية العملية فأمرت باختبارهم وتدريبهم على التصرف والقيام ببعض الشئون ليظهر أيحسنون أم يسيئون ؟ ويكون الاختبار تحت إشراف الولى ورقابته ليرشد اليتيم إلى وجوه التصرفات النافعة ، فإذا بلغ اليتيم الحلم واستبان للولى رشده وقدرته على ضبط الأموال وحسن التصرف فيها دفع إليه ماله ليستقل بالتصرف فيه (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) وليس للأولياء أن يجاوزوا الحد بالإسراف فى أموال اليتامى أو يسارعوا إلى بعض التصرفات التى لهم فيها منفعة خاصة قبل أن يكبر اليتيم ويأخذ ماله . فليتقوا الله فى هاتين الحالين : الإسراف ، ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف . والله يعلم المفسد من المصلح .

(ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا) .

أما الأكل منها بغير إسراف ولا مبادرة خوف أخذها عند البلوغ والرشد فقد ذكر الله حكمه فى قوله (ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) فمن كان غير محتاج إلى مال اليتيم الذى فى حجره فليحمل نفسه على أن تعف عنه نزاهة وشرف نفس ، ومن كان فقيراً محتاجا إليه فليأكل بالمعروف الذى يبيحه الشرع ولا ينكره أهل المروءة والفضل .

وفى الحديث المرفوع أن ابن عمر رضى الله عنهما سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ليس لى مال وإنى ولى يتيم . فقال : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأثل[1] مالا ومن غير أن تقى[2] مالك بماله » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة الولى من مال اليتيم ؛ إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت.

(فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى إذا بلغ الأيتام الحلم وظهر رشدهم وحسن تصرفهم فآتوهم أموالهم وادفعوها إليهم وأشهدوا عليهم بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت ذممكم منها فذلك أبعد من التخاصم والتجاحد وأدخل فى الأمانة . وعندى أن الإشهاد على ذلك ضرورى لإبراء الذمة، وبالأولى فى هذا الزمان الذى فشا فيه سوء الظن وكثرت الاتهامات بغير دليل واجترأ الناس على أعراض إخوانهم فرموهم بما ليس فيهم من سوء فمن أراد أن يستبرىء لعرضه ودينه فليمتثل أوامر الله ففيها النجاة كل النجاة .

---

(١) متأثل : مدخر شيئاً لنفسك .

(٢) تحفظ مالك بإنفاق ماله أو باستخدامه فى مصالحك .

وقد كانت هذه الآيات الواردة فى شأن اليتيم والسفهاء أساسا لقانون المجالس الحسبية التى وكل إليها إقامة الأوصياء على اليتامى والسفهاء، ومحاسبتهم على تصرفاتهم فى الأموال التى أقيموا عليها (وكفى بالله حسيبا) مطلعا عليكم وشهيداً يحاسبكم على أعمالكم وهو الذى يعلم السر وأخفى .

ما يؤخذ من الآية :

١ ــ الأمر باختبار اليتيم وتدريبه على التصرف ليهتدى إلى ما فيه الخير والصلاح .

٢ ــ الأمر بدفع ماله إليه عند بلوغه ورشده ويكفى ظهور طرف من الرشد ولا ينتظر حتى يبلغ تمامه ويشهد لذلك قوله تعالى «رشدا» بالتنكير .

٣ ــ النهى عن أكل شىء من مال اليتيم على وجه الإسراف أو مبادرة قبل كبره .

٤ ــ أمر الله الوصى والولى أن يحمل نفسه على العفة فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم وذلك إذا كان الوصى أو الولى غنياً، أما إذا كان فقيراً فقد أباح الله له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف الذى يرتضيه الشرع والعرف .

٥ ــ أمر الله الأولياء بالإشهاد على اليتامى عند دفع أموالهم إليهم .

٦ ــ التنبيه إلى أن الله تعالى هو الرقيب المحاسب على كل ذلك وهو الحقيق بأن يتقى ويخشى فى جميع التصرفات . وكفى بالله حسيبا .

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧).

(نصيباً مفروضاً) حقاً واجباً لابد من أخذه فلا يسقط ولو أعرض عنه صاحبه .

المعنى العـام :

لايزال سياق الآيات متصلا فى شأن حماية الضعفاء من النساء والأيتام فبعد ما بينه الله فى الآيات السابقة من أحكام تحمى حقوق اليتامى والنساء والسفهاء ، وأبطل ماكان عليه العرب فى الجاهلية من هضم حق الضعيفين اليتيم والمرأة وأكل أموالهما بالحيلة مرة وبالظلم أخرى - بعد ذلك على التفصيل المتقدم فى الآيات حرم فى هذه الآية ماكانوا يفعلونه من منع توريث المرأة والصغير . فالكلام لايزال فى حقوق اليتامى والنساء ، ومنع الظلم الذى كان يصيب كلا منهم ، فليس فى الآية انصراف عن موضوع الآيات قبلها كما فهم بعض المفسرين .

روى أن أوس بن ثابت الأنصارى توفى وترك امرأة يقال لها أم كحلة وثلاث بنات له منها ، فقام ابنا عمه وهما سويد وعرفجة وأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً ، على سنة الجاهلية فى عدم توريث النساء والأطفال ، فجاءت أم كحلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فقال : « ارجعى حتى أنظر ما يحدثه الله تعالى . فنزلت الآية ، فأرسل إليهما أن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين ، فلا تفرقا من مال أوس شيئاً حتى يبين، فنزل قوله تعالى: يوصيكم الله فى أولادكم . . . الآيات ، فأعطى أم كحلة الثمن والبنات الثلثين والباقى لابنى العم .

وقد بينت الآية أن الذكور لهم نصيب مما ترك الوالدان والأقربون والإناث لهم نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، سواء أكان ذلك المتروك قليلا أم كثيراً. فليس للرجال أن يحرموا النساء من الميراث ولا أن يستأثروا ببعض التركة كما كانوا يفعلون فى الجاهلية من اختصاص الرجال بالخيل وأدوات الحرب - وقد أوردت الآية حكم النساء على الاستقلال فلم تقل للرجال وللنساء نصيب . . وذلك للاعتناء بأمرهن ، والإيذان بأصالتهن فى استحقاق الإرث، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت نصيبى الفريقين ، والمبالغة فى إبطال حكم الجاهلية .

ما يؤخذ من الآية :

١ - قررت الآية حق النساء فى الإرث مما ترك الوالدان والأقربون وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا ويقولون : لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف وحاز الغنيمة .

٢ - قررت الآية كذلك حق الصغير فى الإرث وبينت علة الميراث وهى القرابة، وليست المقاتلة والمطاعنة والمضاربة بالسيف كما كانوا يقولون.

٣ - قررت الآية أن حق الورثة ثابت فى المال المتروك كله قليله وكثيره فلا اختصاص لأحد بحيازة بعضه قبل القسمة ولا يمنع وارث بدون حق .

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٩)

(فارزقوهم منه) أعطوهم شيئا من مال الميت (من خلفهم) من بعد موتهم (سديدا) صوابا موافقا لأحكام الدين .

المعنى العام :

إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوى القربى الذين لا يرثون ومن اليتامى والمساكين فلا تضيق نفوسكم بحضورهم وأعطوهم شيئا من المال الذى تجرى قسمته حتى تطيب نفوسهم وتبرأ مما قد يسرى إليها من حسد الوارثين على ما أخذوا من مال بغير كد ولا تعب، وقولوا لهم قولا فيه تودد وتلطف تطمئن النفس إليه .

فالآية تطلب الإحسان إلى هؤلاء بالفعل (فارزقوهم منه) وبالقول (وقولوا لهم قولا معروفا) . وإعطاء هؤلاء من مال الميت وهم ليسوا من ورثته لون من الإحسان الذى أمر به القرآن فى آياته ومنه ما جاء فى هذه السورة فى قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين . . . الآية » .

ثم جاء قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . . . الآية » يأمر المؤمنين جميعاً أن يتقوا الله ويراقبوه فلا يقولوا أو يفعلوا مايترتب عليه ضرر بذرية أحد ، وقدمت الآية لهذا الأمر بما يدعو إلى امتثاله بأنهم عرضة لأن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية

ضعافا يخافون أن يسيء الناس معاملتهم أو يضيعوا حقوقهم فليفعلوا مع ذرية الغير مايحبون أن يفعله الناس مع ذرياتهم . وفى هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — الأمر بإعطاء المحتاجين من غير الوارثين شيئا من التركة تطييبا لنفوسهم ، وإحسان القول إليهم .

٢ — النهى عن القول أو الفعل الذى يلحق الضرر بالورثة أو اليتامى أو من حضر قسمة التركة ممن لا نصيب له فى الميراث .

٣ — التذكير بما قد تتعرض له ذرية الإنسان بعد موته حتى يتقى الله فى ذرية غيره .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ
ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ
وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ
لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ
وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)

(سيصلون سعيرا) سيدخلون ناراً حامية (يوصيكم) يأمركم ويفرض عليكم (حظ) نصيب .

المعنى العام :

حذر الله الذين يأخذون أموال اليتامى فينفقون منها بغير حق ويأكلونها ظلما، وصور عملهم هذا تصويرا رهيبا مفزعا، فجعلهم كمن يأكلون فى بطونهم ناراً، أو أنهم يأكلون ما يجرهم إلى النار، وسيدخلون يوم القيامة ناراً حامية وبئس المصير .

وبعد ما أبطل الله عادة الجاهلية فى حرمان المرأة والطفل من الميراث بقوله : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) جاءت آيات الميراث تبين الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث وتبطل الأسباب التي كان

يورث بها أهل الجاهلية وتقيم أسبابا أخرى لاستحقاق الميراث فريضة من الله والله عليم حكيم .

فقد كانت أسباب الإرث فى الجاهلية تنحصر فى ثلاثة :

١ — النسب وهو خاص بالرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون الأعداء ويأخذون الغنائم ، ليس للضعيفين : الطفل والمرأة منه شيء .

٢ — التبنى . فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره فيرثه ويكون له أحكام الابن الصحيح .

٣ — الحلف والعهد . يتعاهد الرجلان على أن يرث أحدهما صاحبه إذا مات قبله .

فجاءت آيات المواريث تبطل هذه الأسباب الجاهلية وتجعل الميراث بسببين اثنين وهما :

١ — النسب : الذى يعم الرجال والنساء والصغار والكبار فجعلت الإرث بالبنوة ، والأبوة ، والأمومة ، والأخوة .

٢ — الزوجية : فورثت أحد الزوجين من الآخر إذا مات قبله .

وجاء ذلك بالتفصيل والتصريح وبيان الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث فى ثلاث آيات من سورة النساء : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين[1] . . . . » . « ولكم نصف ما ترك أزواجكم[2] . . . . » « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة[3] . . . . »

* ففى ميراث الأبناء جاء قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف » . ففرض للذكر سهمين وللأنثى سهما وذلك عند اجتماعهما .

(١) آية رقم ١١ (٢) آية رقم ١٢ (٣) آية رقم ١٧٦

وفرض للأنثى إذا انفردت عن الذكور نصف التركة إن كانت واحدة ، والثلثين إن كن ثلاثا فأكثر، والإجماع على أن الاثنتين كالثلاث لهما الثلثان.

وفى الآية مايفيد أن الذكر إذا انفرد يأخذ التركة كلها، ذلك لأن الأنثى إذا انفردت تأخذ النصف ، والذكر مثل حظ الأنثيين .

* * *

وقد اتخذ خصوم الإسلام من التفاوت بين نصيبى الذكر والأنثى مطعنا على الإسلام زاعمين أن هذا التفاوت مظهر من مظاهر هضم الإسلام حق المرأة ، والنظر إليها على أنها مخلوق دون الرجل .

وكذبوا فيما قالوا . فالإسلام كرم المرأة وصانها وأعاد إليها كرامتها واسترد لها حقوقها؛ فورثها بعد حرمان، واحترم ملكيتها لمالها ومنع أن يؤخذ شىء منها إلا عن طيبة نفس ورضا «فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » . « ... وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ». وجعل مسئوليتها كاملة عن أعمالها تلقى جزاءها ثوابا أو عقابا « . . أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض[1] »: إلى غير ذلك من دلائل الرعاية ومظاهر التكريم .

أما كون ميراثها على النصف من الرجل فذلك مما يقتضيه الإنصاف والعدل فقد سلم سهمها من الالتزامات والتبعات فهى لا تدفع مهرا للرجل، بل هو المكلف بالإنفاق على نفسه وزوجه وولده ومن تلزمه نفقته من محارمه وهو الذى يدفع المهر لزوجته ويلزم بطعامها وملبسها وسكناها وخدمها أفلا يكون من العدل أن يزيد نصيبه شيئا يعينه على مواجهة هذه المطالب . ولا شك أن سهما خالصا من التبعات خير وأبقى من سهمين تستغرقهما النفقات . على أن الذى يزيده الذكر عن الأنثى هو « السدس » فقط ، إذا قسمت التركة على شرع الله فإن الذكر يأخذ الثلثين والأنثى تأخذ الثلث ؛ أى إذا كانت

(١) سورة آل عمران آية ١٩٥

الأنصباء ستة أخذ الذكر أربعا وأخذت الأنثى اثنين ، ولو قسمت التركة بالتساوى لأخذ الذكر ثلاثا وأخذت الأنثى مثلها ، وبذلك يظهر أن الذكر لم يزد فى شرع الله إلا نصيبا واحدا من ستة أنصباء أى : سدس التركة . فهل هذا كثير فى مواجهة ماعليه من التكاليف والمسئوليات .

* * *

« وفى ميراث الوالدين جاء قوله تعالى « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس » . فذكر لميراث الأبوين ثلاث حالات :

١ - السدس لكل منهما إن كان معهما ولد للميت ذكرا كان أو أنثى ، غير أنه إذا كانت أنثى واحدة ففرضها النصف ونصيب الأبوين : السدس للأم والثلث للأب « سدس بالفرض وسدس بالتعصيب » .

٢ - الثلث للأم والثلثان للأب إذا انفردا وليس معهما ولد ولا إخوة .

٣ - السدس للأم والباقى للأب إذا كان معهما أخوان فأكثر من أى جهة كانوا .

وبينت الآية أن حقوق الميت من أداء دينه وتنفيذ وصيته مقدمة على تقسيم التركة فلا يأخذ وارث نصيبه إلا « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ومع أن قضاء الدين مقدم فى التنفيذ على الوصية إلا أنه جاء ذكرها فى الآية مقدما إشعارا بوجوب تنفيذها وعدم التهاون فيها .

وقررت الآية بعد ذلك أن الله الذى شرع هذه الفرائض هو العليم بمصالح عباده ، الحكيم فى شرعه ، وأن العباد لايدرون وجوه الخير ولا يعلمون أى الأقرباء أنفع لهم فعليهم أن يمتثلوا أمر الله فيما شرع وقدر « آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا ، فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » .

* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ
فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ
وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ
وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى
الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ
اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا
فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)

(كلالة) من مات وليس له ولد ولا والد (غير مضار) غير ملحق الضرر بأحد (حدود الله) أوامره ونواهيه الفاصلة.

المعنى العام :

« فى ميراث الزوجين جاء قوله تعالى « ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » . فذكر لميراث كل من الزوجين حالتين : حالة مع الولد وأخرى عند عدم الولد .

ونبين ذلك فيما يأتى :ـ

١ ــ النصف للزوج إن لم يكن لزوجته ولد منه أو من غيره ذكرا أو انثى واحدا أو متعددا ، وولد الابن كالولد .

٢ ــ الربع للزوج إن كان لزوجته ولد أو ولد ابن وإن سفل .

٣ ــ الربع للزوجة أو الزوجات إن لم يكن للزوج ولد منهن أو من غيرهن ذكرا أو أنثى واحدا أو متعددا ، وولد الابن كالولد .

٤ ــ الثمن للزوجة أو الزوجات إن كان للزوج ولد أو ولد ابن وإن سفل.

وهذه الأنصباء فى الباقى من التركة فى كل من الحالتين بعد إنفاذ الوصية ووفاء الدين « من بعد وصية يوصين بها أو دين » ، « من بعد وصية توصون بها أو دين » .

* * *

• وفى ميراث الإخوة : جاء ميراث الإخوة لأم فى قوله تعالى : (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم) .

ففرض الإخوة لأم :

١ ــ السدس للواحد أو الواحدة :

٢ ــ الثلث للاثنين فصاعدا ذكورا أو إناثا هما فى القسمة والاستحقاق سواء

٣ ــ لا يرثون مع الولد أو ولد الابن وإن سفل، ومع الأب والجد وإن علا ، إذ يشترط فى إرثهم الكلالة وهو عدم الولد والوالد .

* * *

• أما ميراث الإخوة الأشقاء أو لأب فقد ذكر فى الآية التى ختمت بها السورة وهى قوله تعالى : (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة . إن

امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين ، يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » .

بينت الآية فرض الإخوة الأشقاء أو لأب من ميراث أخيهم المتوفى .

* فالإخوة الأشقاء أحوال ميراثهم ما يأتى :

١ – لا يرثون مع وجود الابن وابن الابن وإن سفل وكذلك مع وجود الأب إذ يشترط فى إرثهم الكلالة بنص الآية .

٢ – النصف للواحدة إذا انفردت .

٣ – الثلثان للاثنتين فصاعدا عند عدم من ذكر وعدم الأخ الشقيق

٤ – للذكر مثل حظ الأنثيين إذا وجد معهن أخ شقيق .

٥ – تصير الأخوات عصبة مع البنات أو بنات الابن فيأخذن ما بقى بعد أصحاب الفرائض . وهذه الحالة ثابتة بقوله صلى الله عليه وسلم « اجعلوا الأخوات مع البنات عصبة » .

* والإخوة لأب يكون فرضهم كالأشقاء عند عدم وجودهم . ولهم حالات أخرى ليس هنا مقام تفصيلها .

وهذه الأنصباء كغيرها تكون من التركة بعد إنفاذ الوصية وقضاء الدين كما سبق بيانه .

وفى قوله تعالى « غير مضار » وصية لأصحاب الأموال أن لا يقصدوا من وصيتهم أو الاعتراف بدين عليهم الإضرار بورثتهم فذلك معصية يحاسبون عليها ، وليس لهم أن يتجاوزوا ثلث المال فى وصاياهم فقد قال عليه الصلاة والسلام لمن أراد أن يوصى « الثلث والثلث كثير ... » . وليس لهم أن يعترفوا بدين لم يأخذوه بقصد إلحاق الضرر بالوارثين حتى وإن

كانوا لهم كارهين، والله عليم بنيات العباد . عليم بما فيه نفعهم. حليم لا يعجل عقوبتهم ويفتح لهم باب الرجوع إليه لعلهم يرجعون .

وجدير بالمؤمنين أن يتدبروا تشديد الله فى المحافظة على أحكام الميراث فقد بينها بياناً شافياً ليس محل اجتهاد ، وليس قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالتهجم على شرع الله ، ولا تغيير أحكامه . وكتاب الله بين واضح يتلوه الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

جدير بالمؤمنين إذا قرأوا هذه الآيات أن يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم » وقوله : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » وقوله : « وصية من الله » وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

(تلك حدود الله) أحكامه التى شرعها لخير العباد ، وألزم الناس عدم مجاوزتها (ومن يطع الله) فيما شرع وأمر (ورسوله) فيما بلغ وبيّن (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم) الذى أعده الله للطائعين (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) وقانا الله معصيته ومجاوزة حدوده ورزقنا طاعته وطاعة رسوله آمين .

وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّـٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا(١٦)

(الفاحشة) ما فحش فعله واشتد قبحه (فاستشهدوا) اطلبوا شهادة (أربعة منكم) أربعة من الرجال العدول الأحرار (يتوفاهن الموت) يأخذهن الموت (يأتيانها) الضمير عائد إلى الفاحشة .

المعنى العام :

وجه الاتصال بين هاتين الآيتين وماقبلهما أنه لما تقدمت الآيات ببيان حقوق النساء فى النكاح والمهور والعدل معهن وتوريثهن كالرجال ناسب ذلك أن تأتى هاتان الآيتان ببيان ما يجب عليهن من صيانة أعراضهن والعقوبة التى شرعها الله لمن يأتى الفاحشة من الرجال والنساء ويترك ماشرع الله من النكاح الحلال .

ويرى الجمهور فى تفسير الآيتين أن المراد بالفاحشة الزنا وأنهما نزلتا فى بيان عقوبته وهى الحبس فى البيوت إلى انقضاء الأجل أو أن يجعل الله للزانية سبيلا — والإيذاء للزانى إلى أن يتوب ويقلع عن فعلته . وقد كان ذلك فى أول الإسلام .

ثم يختلف الجمهور اختلافا كبيرا فى المراد بالسبيل وهل هو الحد الذى شرعه الله بقوله : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » أو زواج المرأة ؟ وهل الآيتان نسختا أم ما يزال حكمهما باقياً ؟ وما وجه

تخفيف عقوبة الرجل والاكتفاء بالإيذاء ، وتشديد عقوبة المرأة بالحبس حتى الموت ؟ وما وجه التعبير فى الآية الأولى « واللاتى يأتين » بصيغة الجمع للنساء وفى الآية الثانية « واللذان يأتيانها » بصيغة التثنية للرجال ؟ . . . إلى غير ذلك مما يطول شرحه وقد اضطربت آراء الجمهور فيه .

ولكن الذى يجرد نفسه من عاطفة التقليد للجمهور يجد فى أقوال غيرهم ما هو أقرب إلى القبول وأدنى إلى إظهار بلاغة القرآن وحكمته التشريعية .

فإن مجاهداً يرى فى الآيتين رأيا نقله عنه أبو مسلم الأصفهانى وأيده فيه . وبيانه : أن الآيتين تتحدثان عن جريمتين غير جريمة الزنا ، إحداهما تقع من النساء خاصة وهى جريمة « المساحقة » تكون بين المرأة والمرأة ولذلك جاء التعبير عنها « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » . والثانية تقع بين الرجل والرجل وهى جريمة « اللواط » ، لا دخل للنساء فيها ولذلك جاء التعبير عنها « واللذان يأتيانها منكم » ، وعقوبة الأولى حبس النساء اللاتى يرتكبنها حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا بزوجية يصلحن بها وينسين هذا الداء الوبيل ، وعقوبة الثانية إيذاء مرتكبيها إيذاء مفوضا تقديره إلى ولى الأمر يشدده ويخففه حسب مقتضيات الأحوال والظروف

وعلى هذا المعنى يكون القرآن الكريم قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث : الجريمة التى تكون بين امرأة وامرأة ، والتى تكون بين رجل ورجل وقد جاء حكمهما فى هاتين الآيتين ، والثالثة التى تكون بين الرجل والمرأة وقد جاء حكمها فى سورة النور فى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... » .

وعلى هذا المعنى كذلك يكون حكم الآيتين باقيا غير منسوخ ومعنى السبيل واضح غير مضطرب . والتعبير فى الآية الأولى بـ « اللاتى » وفى

الثانية بـ « اللذان » مستقيم لا يحتاج إلى تأويل . وكل ذلك يرجح ما ذهب إليه أبو مسلم ونقله عن مجاهد .

وقد ارتضى هذا المعنى الإمام محمد عبده فقال : فالحق أن ماذهب إليه أبو مسلم هو الراجح فى الآيتين .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — جريمة « السحاق » بين النساء . إذا ثبتت بشهادة أربعة من الرجال أحرار عدول فعقوبتها الحبس فى البيوت حتى الموت إلا أن يفرج الله عنهن بزوجية صالحة تبعدهن عن هذا الشذوذ وتعيدهن إلى ممارسة طبيعتهن .

٢ — جريمة « اللواط » بين الرجال إذا ثبتت بشهادة أربعة من الرجال احرار عدول فعقوبتها مفوضة إلى ولى الأمر يقررها حسب ظروف المجتمع وأحواله بما يراه رادعا لهما ولغيرهما .

* * *

(فإن تابا) رجعا عن الفاحشة (وأصلحا) العمل كما هو شأن المؤمن (فأعرضوا عنهما) كفوا عن إيذائهما (إن الله كان توابا رحيما) مبالغاً فى قبول التوبة من العباد شديد الرحمة بهم وإنما شرع العقاب لينزجر العاصى ويسلم المجتمع .

ولما ذكر الله تعالى أن التوبة مع الإصلاح تقتضى ترك العقوبة على الذنب فى الدنيا ووصف نفسه بالتواب الرحيم الذى يقبل التوبة من عباده كثيراً ويعفو بها عنهم — عقب ذلك ببيان شرط قبول التوبة فى قوله : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . . . الآيات » .

(١) تفسير المنار ص ٤٣٩ ج ٤ .

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ
مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(١٧)
وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ
أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا(١٨)

(على الله) أوجبها على نفسه بفضله وكرمه (السوء) العمل القبيح (بجهالة) بجهل أو سفه .

المعنى العام :

أوجب الله تعالى على نفسه بفضله وكرمه قبول توبة أولئك الذين يعملون السوء عن جهل أو خفة نفس . تدفعهم إلى ارتكابه ثورة غضب أو سورة شهوة ثم يتذكرون ويستبصرون سوء ما فعلوا فيرجعون إلى الله من قريب ولا يتمادون فى المعاصى ولا يصرون على ارتكابها فأولئك لهم حق على الله ألزم به نفسه أن يتوب عليهم ويغفر لهم ما وقعوا فيه من ذنب ، وكان الله عليما بما يصلح عباده حكيما فى معاملة التائبين منهم بالعفو والقبول حتى لا تيأس نفوسهم فيتردون فى مهاوى الرذائل والآثام .

وليس على الله حق فى قبول توبة الذين يقترفون السيآت ويصرون عليها طول حياتهم حتى إذا جاءهم الموت حركوا ألسنتهم بالرجوع إلى الله ، ولا الذين يموتون على الكفر فهؤلاء أعد الله لهم عذابا مؤلما إيلاما شديداً .

ما يؤخذ من الآيات :

أصناف الناس بالنسبة للتوبة أربعة :

١ ـ الذين يقع منهم فعل السوء هفوة بعد هفوة إما عن جهل أو بادرة غضب أو شهوة ثم يبادرون إلى التوبة فهؤلاء كتب الله على نفسه قبول توبتهم .

٢ ـ الذين يرتكبون السيآت على معرفة بعواقبها وإصرار عليها حتى إذا عجزوا عجزاً مادياً أو أدركهم الموت جعلوا يرددون بلسانهم كلمة التوبة فهؤلاء حكم الله عليهم بأن لا توبة لهم عنده ولا قبول .

٣ ـ الكفار الذين يستمرون على الكفر حتى يموتوا فهؤلاء لا تقبل منهم توبة من قريب ولا من بعيد ولا أمل لهم ولا رجاء إذ شرط قبول التوبة إيمان صاحبها .

٤ ـ الذين يفعلون السوء بجهالة ولا يتوبون من قريب ويؤجلون التوبة إلى حين لكنهم يتوبون قبل أن يحضرهم الموت أو مقدماته ، وقد دل الكلام على هذا الصنف بالمفهوم لا بالمنطوق، كما دل على أنهم لا حق لهم فى القبول كالصنف الأول، ولا يأس من قبول توبتهم كالثانى والثالث . فأمرهم متروك للعدل الإلهى يعاملهم بما يستحقون وبما يعلم من نواياهم وقلوبهم إن شاء قبل وغفر وإن شاء رفض وعاقب وكان الله عليما حكيما .

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا(١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ
زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا(٢١)

(ترثوا النساء) ترثوا ذواتهن كما يورث المتاع (ولا تعضلوهن) لا تحبسوهن وتضيقوا عليهن (بفاحشة) مايفحش من فعل أو قول (مبينة) ظاهرة واضحة (قنطاراً) مالا كثيراً (بهتانا) ظلما وزورا (وإثما مبيناً) ذنباً ظاهراً (أفضى بعضكم إلى بعض) خلا بعضكم إلى بعض (ميثاقا غليظاً) عهداً وثيقاً .

المعنى العام :

ما يزال الكلام متصلا من أول السورة فى شأن النساء وما أعطاهن الإسلام من حقوق. فقد جاءت هذه الآية تبطل عادة جاهلية إذ كانوا يرثون النساء كما يورث المتاع والعبيد فإذا مات الرجل جاء ابنه أو وارثه فألقى على زوجه ثوبا فمنعها من الناس فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها. وقد تأصلت هذه العادة فى الجاهلية ثم جاء الإسلام يفك أسر النساء ويحطم الأغلال التى قيدن بها قرونا طويلة فنادى المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وأعلمهم أنه لا يحل لهم إرث النساء

كما كان يفعل أهل الجاهلية ، ويحرم عليهم أن يضيقوا على أزواجهم بغير سبب . وكان الرجل فى الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيضيق عليها ويمنعها حقوقها الزوجية حتى تفتدى نفسها منه بما قدم لها من صداق أو بعضه أو أكثر فجاءت الآية تحرم ذلك على المؤمنين وتمنعهم أن يأخذوا شيئاً مما دفعوه لزوجاتهم عن طريق التضييق عليهن إلا أن يحدث الإيذاء بالفعل أو القول واضحاً بينا من جهتهن كأن تسىء المرأة معاشرة الزوج أو أهله أو تمتهن عرضه وكرامته فمن حقه حينذاك أن يلجئها إلى افتداء نفسها منه لأنها حينئذ هى المعتدية وفى ذلك قوله تعالى : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ثم أوجب الله معاشرة النساء بالمعروف الذى تطمئن إليه النفس فى رحاب المودة والرحمة وحذر من الانسياق وراء العواطف فلا يتسرع الرجال فى فراق زوجاتهم إذا كرهوا منهن شيئاً بل عليهم أن يصبروا ويعالجوا الأمور بتؤدة ورفق (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) عسى أن يرزقكم الله منهن ذرية صالحة أو يجعل فيهن من الخير الكثير مالا ترونه الآن .

فإذا استحكم الكره فى نفوسكم وأردتم تزوج امرأة ترغبون فيها مكان امرأة ترغبون عنها وقد آتيتم التى تريدون طلاقها مالا كثيراً فلا تأخذوا منه شيئاً يسيراً فضلا عن الكثير (أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا) استفهام إنكار وتوبيخ لهذا العمل السىء الآثم .

ثم عقبت الآيات باستفهام آخر مبالغة فى استنكار أخذ شىء من مال المطلقة التى رغب الزوج عنها دون ذنب من جهتها فقال تعالى : (وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا) على أى حال يمكن أن يحدث هذا الأخذ وقد خلا بعضكم إلى بعض واتصل به اتصالا كاملا وأخذن منكم عهداً موثقاً يربطكم بهن أقوى الربط وأحكمه

فقد سلمن لكم أنفسهن بشريعة الله وامتزجن معكم بكلمة الله التي أباحت لكم الاستمتاع بهن .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — كانت المرأة تورث فى الجاهلية كما يورث المتاع والعبيد فحررها الإسلام وفك إسارها وأنقذها من هذا الاستعباد .

٢ — كان الزوج إذا كره زوجته حبسها عنده وعاملها معاملة سيئة لتفتدى نفسها بما تملك من مال فحرم الإسلام ذلك إلا أن تكون المرأة هى المعتدية إعتداء بينا فلا يحرم حينئذ على الزوج مخالعتها وأخذ شىء من المال نظير طلاقها .

٣ — الأمر بمعاشرة النساء بالمعروف وعدم الانسياق وراء العواطف فالإنسان لا يعلم أين يكون الخير .

٤ — يحرم على الزوج إذا طلق زوجه أن يأخذ شيئاً ولو يسيراً من صداقها مهما كان كثيراً ، وقد أنكر القرآن على من يفعل ذلك أشد الإنكار .

وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ
اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ
اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) *
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ
لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا
اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

(مانكح آباؤكم) ماتزوج آباؤكم بمجرد العقد (ماقد سلف) ماحدث من ذلك قبل نزول الآية (فاحشة) أمرا مستقبحا غاية القبح (مقتا) ممقوتا مبغوضا (وساء سبيلا) وبئس ذلك طريقا (وربائبكم) جمع ربيبة وهي بنت المرأة من زوج آخر (حلائل أبنائكم) زوجات أبنائكم (والمحصنات) المتزوجات (تبتغوا) تطلبوا (محصنين) متزوجين (مسافحين) زانين (أجورهن) مهورهن .

المعنى العام :

بعد ماتقدم من ذكر نكاح اليتامى ومن يحل نكاحه من الزوجات

بعدده وشرطه وما ذكر فى الآيتين السابقتين من تحريم إرث النساء كرها وعضلهن على عادة الجاهلية جاء الحديث فى هذه الآيات موصولا بهذه المعانى فى بيان من يحرم نكاحهن .

وقد ابتدأ هذا البيان بالنهى عن نكاح ما نكح الآباء على ما كان يفعله أهل الجاهلية . وقد أكد الله النهى عن هذا النكاح أبلغ تأكيد حيث أورده فى آية خاصة ولم يذكره مع سائر المحرمات ووصفه بأبشع مما وصف به الزنا فقد جاء فى الزنا « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا[1] » وجاء فى هذا النكاح « إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » أمرا فاحشا شديد القبح مبغوضا عند الله مذموما سبيله وطريقه . ولما كان هذا التحريم يستتبع الوعيد الشديد لمن يقع فى هذا المنكر بين الله أن ما سبق من ذلك قبل نزول الآية لا مؤاخذة عليه .

ولا شك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة أمر ممقوت تنفر منه الفطر المستقيمة وتمجه الاذواق السليمة وفيه امتهان لذكرى الآباء وإشعار للمرأة بأنها كالمتاع الموروث فسبحان من شرع للناس ما فيه كرم نفوسهم وسلامة فطرهم ونقاء سبيلهم .

ثم ذكرت الآيات بقية المحرمات من النساء ؛ وهن سبع من النسب وسبع من السبب :

المحرمات من النسب :

١ — الأم والجدة وإن علت

٢ — البنت وبنت الابن وبنت البنت وإن نزلت

(١) الاسراء آية رقم ٣١ .

٣ ـ الأخت الشقيقة أو لأب أو لأم
٤ ـ العمة أخت الأب سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم
٥ ـ الخالة أخت الأم سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم
٦ ـ بنت الأخ الشقيق أو لأب أو لأم
٧ ـ بنت الأخت الشقيقة أو لأب أو لأم

محرمات من السبب :

١ ـ الأم من الرضاعة
٢ ـ الأخت من الرضاعة

وكذلك عمته وخالته وبنت الأخ وبنت الأخت من الرضاع يحرمن جميعا لقوله عليه الصلاة والسلام « يحرم من الرضاع مايحرم من النسب » .

٣ ـ أم الزوجة وتحرم بمجرد العقد على ابنتها

٤ ـ الربيبة وهى بنت الزوجة من رجل آخر ولا تحرم إلا إذا دخل بأمها ولذلك يقولون : « العقد على البنات يحرم الأمهات والدخول بالأمهات يحرم البنات .

٥ ـ زوجة الابن من الصلب أما الابن المتبنى فلا تحرم على من تبناه. فقد تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وتزوج زيد زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول فلما طلقها أمر الله تعالى رسوله بزواجها لإبطال عادة الجاهلية فى تحريم زواج امرأة الابن المتبنى وقال تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطرا[1] » .

(١) سورة الاحزاب آية ٣٧ .

٦ – الجمع بين الأختين وكذلك الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها لقوله عليه السلام (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامهن) .

٧ – المحصنات من النساء ذوات الأزواج وهن فى العصمة يحرمن على غير أزواجهن إلا ماملكت أيمانكم بالسبى فى الحرب فلايحرمن عليكم

ثم بين تعالى أن تحريم من ذكر قد كتبه الله على المؤمنين وفرضه فرضا محكما لايصح تجاوزه (كتاب الله عليكم) وأحل لكم ماسوى المحرمات المذكورات فتتزوجون من غير هؤلاء طالبين ذلك بأموالكم على سبيل الإحصان والعفة لا على سبيل السفاح والفجور (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) فمن طلبتم أن تتمتعوا بها وتنتفعوا بتزوجها فأعطوها المهر الذى تفرضونه لها عند العقد فريضة لا تهاون فى أدائها (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) أى لا حرج ولا تضييق عليكم إذا تراضيتم بعد الفريضة على الزيادة فيها أو النقص منها أو حطها كلها فإن ذلك مادام عن رضا وطيب نفس فلا اثم فيه ومنه قوله تعالى (فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) . وهكذا شرع الله لكم قواعد العدل وأرشدكم مع ذلك إلى الإحسان والفضل (إن الله كان عليما حكيما) يضع لعباده من الشرائع بحكمته مايعلم أن فيه خير حياتهم وصلاح أحوالهم .

ومعلوم أن النكاح الذى يحقق الاحصان والعفة ولا يكون الزوج به مسافحا هو النكاح الصحيح الدائم المستوفى شرائطه فليس فى الآية دليل على حل نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل محدود فهو غير متفق مع شريعة الإسلام فى صيانة الأنساب وحماية الأعراض وتحقيق غايات النكاح من إنجاب الولد وعمارة الكون وسكن الزوجين والمودة والرحمة والمعاشرة

بإحسان وقد جعل الله ذلك من نعمه الكبرى حيث يقول « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون[1] » .

وإن من الكفر بنعمة الله أن يعقد النكاح على وجه تضيع فيه كل المزايا والمصالح والغايات النبيلة التى شرعه الله لتحقيقها ، ويصبح هذا العقد مسخا لا يحقق إلا قضاء شهوة أو إرضاء نزوة كما فى عقد المتعة الذى لا يزال بعض الناس يحسبونه حلالا « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » .

(١) سورة النحل آية ٧٢ .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) .

(طولا) قدرة وسعة (المحصنات[١]) الحرائر (فتياتكم) إمائكم المملوكات (محصنات) عفيفات (غير مسافحات) غير مجاهرات بالزنا (ولا متخذات اخدان) ولا مسرات به مع رفيق فاحشة (العنت) الجهد والمشقة وغلبة الشهوة .

المعنى العام :

يرشد الله المؤمنين إلى أن يختاروا زوجاتهم من الحرائر المؤمنات فذلك أكرم لنفوسهم وأصلح لبيوتهم وأشرف لذرياتهم وقد أخذ الفقهاء من ذلك أفضلية الزواج من الأسر الطيبة والبيئات الصالحة وفى هذا المعنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاظفر بذات الدين تربت يداك » فمن لم يجد قدرة وسعة يحصل بها على نكاح الحرة المؤمنة وخشى العنت والوقوع فى الإثم بغلبة شهوته عليه فقد رخص الله له فى نكاح الأمة المؤمنة (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ولا يستنكف ذلك أو يعده

(١) وردت كلمة « المحصنات » فى القرآن بمعنى المتزوجات والحرائر والعفيفات ولكل مقام ما يناسبه .

عارا عند الحاجة إليه فرب أمة تكون أكمل إيمانا من الحرة وأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) فإذا رغبتم فى نكاحهن (فانكحوهن بإذن أهلهن) أى الموالى الذين يملكونهن فإن الأمة لا تزوج بغير إذن سيدها (وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وأعطوهن مهورهن بالمعروف حال كونهن عفيفات متزوجات منكم غير مستأجرات للبغاء جهرا وهن المسافحات ولا سرا وهن متخذات الأخدان ، وقد كان الزنا فى الجاهلية على قسمين: سر وعلانية . فالسرى أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد وكانوا يستحلون ذلك ، والعلانية الجهرى هو المراد بالسفاح وهو البغاء . وكان البغايا من الإماء ، وكن ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن ، وكان أهل الجاهلية يستقبحون هذا النوع من الزنا ويقولون إنه لؤم، ومع هذا كانوا يشترون الإماء لأجل الاكتساب ببغائهن . وقد جاء الإسلام محرما للقسمين ونزل قوله تعالى : « ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن » ونهى الموالى عن التكسب ببغاء إمائهم فقال جل شأنه « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا[1] » .

وجملة القول أن الله تعالى فرض فى نكاح الاماء مثل مافرض فى نكاح الحرائر من الإحصان وتكميل النفوس بالعفة . (فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب) فاذا تزوجت الأمة ثم اقترفت جريمة الزنا فحدها أن تجلد خمسين جلدة وهو نصف حد الحرة . والآية دليل على حد الأمة المتزوجة إذا زنت ، وقد جاءت السنة بوجوب الحد على الأمة المسلمة غير المتزوجة كذلك. ففى صحيح البخارى ومسلم

(١) سورة النور آية ٣٣ .

أنه قيل : يارسول الله . الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟ فأوجب عليها الحد . قال الزهري : فالمتزوجة محدودة بالقرآن . والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث . وإنما كانت عقوبتها نصف عقوبة الحرة مراعاة لضعفها وذلها واستخدامها لدى سيدها بخلاف الحرة، أو لأن العقوبة تجب على قدر النعمة ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » فلما كانت نعمتهن أكثر كانت عقوبتهن أشد ، وكذلك الإماء لما كانت نعمتهن أقل من نعمة الحرائر فتكون عقوبتهن كذلك أقل[1] .

(ذلك لمن خشى العنت منكم) ذلك الذى أبيح لكم من نكاح الإماء عند العجز عن نكاح الحرائر جائز لمن خاف على نفسه الضرر والفساد والوقوع فى الإثم بغلبة شهوته (وأن تصبروا خير لكم) وأن تصبروا على المشقات مع البعد عن تزوج الإماء خير لكم من نكاحهن وإن كان جائزا لكم (والله غفــور رحيم) كثير المغفرة واسع الرحمة لا يكلف نفسا إلا وسعها .

ما يؤخذ من الآية :

١ ــ الأصل عند ذوى الفطر السليمة أن يختاروا زوجاتهم من العناصر الطيبة وهن الحرائر المؤمنات وفى ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

٢ ــ لا يجوز العدول عن تزوج الحرة المؤمنة إلى تزوج الأمة إلا بشرطين: عدم السعة والقدرة على تزوج الحرة ، وخوف العنت والمشقة .

---

(١) القرطبي حـ ٥ ص ١٤٣ — ١٤٦

٣ — الصبر على العزوبة وترك نكاح الأمة وتحمل المشقة خير وأفضل لما فى نكاح الاماء من تعريض الولد للرق ولأنها ممتهنة مستذلة لدى سيدها. والعزة هى اللائقة بالمؤمنين فلا يليق بهم أن تكون زوجاتهم من هذا النوع

٤ — فى الآية دليل على عدم جواز نكاح المتعة وهو نكاح المرأة إلى أجل معين . ولو كان مباحا لما اقتصرت الآية - فى مقام البيان - على ذكر نكاح الاماء عند العجز والمشقة ، ولما قررت أن الصبر على مجاهدة النفس ومغالبة الشهوة وتحقيق العفة خير من نكاح الإماء ، ولو كان نكاح المتعة جائزا لأرشدت الآية إليه طريقا ميسرا لا تبعة فيه ولا حقوق للمرأة ولا نفقة فعدم ذكره فى هذا المقام دليل على حرمته المؤبدة ولا يليق بمسلم أن يعتقد حله مع ما فيه من العبث بهذه الرابطة العظيمة التى هى أعظم الروابط البشرية، وإيثار التنقل فى مواقع الشهوات بين الذواقين والذواقات.

وقد شرع الله الزواج لإحصان كل من الزوجين للآخر وإخلاصه له وسكنه إليه ، وتعاونهما على تأسيس بيت صالح من بيوت الأمة . ونكاح المتعة ليس فيه شىء من ذلك فقصده الأول المسافحة لا الإحصان .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه فى ذلك « لا أوتى برجل تزوج امرأة إلى أجل إلا رجمتهما بالحجارة » والرجم حد الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا (٢٨) .

(سنن) جمع سنة وهى الطريقة (تميلوا) تعدلوا عن الحق .

المعنى العـام :

من سنة القرآن وطريقته أن يبين علل الأحكام التى يشرعها للعباد فذلك أدعى للامتثال والقبول وأزكى للنفوس وقد جاءت هذه الآيات تبين الإجابة عن أسئلة مقدرة : لماذا شرعت هذه الأحكام المتقدمة ؟ وهل كان من قبلنا مكلفا بمثل ماتقدم من الأحكام ؟ فأوضح العليم الحكيم مخاطبا عباده (يريد الله ليبين لكم) مافيه مصلحتكم (ويهديكم سنن الذين من قبلكم) مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين حتى تسيروا سيرتهم (ويتوب عليكم) مما وقعتم فيه من أنكحة الجاهلية التى قطعتم بها أرحامكم (والله عليم) بما فيه خيركم (حكيم) لم يكلفكم مايشق عليكم (والله يريد أن يتوب عليكم) مما كنتم فيه ويطهركم ويزكى نفوسكم (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) عن طريق الحق والصواب فتجرون وراء لذاتكم وتستعبدون لشهواتكم ، (يريد الله أن يخفف عنكم) فى كل ما كلفكم به فلم يشق عليكم فى شىء « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (وخلق الانسان ضعيفا) تستهويه الشهوات ولا يتحمل مشقة التكاليف فكان من رحمة الله به أن خفف عنه فيما شرع ولم يحرم عليه إلا مافيه مفسدة عظيمة ومضرة بالغة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ – الشرائع والتكاليف التى أرسل الله بها رسله وإن اختلفت فى فروع الأحكام فهى متفقة فى أصولها من توحيد الله وعبادته والخضوع لأمره.

٢ – شرع الله للناس ما فى وسعهم وخفف عنهم تكاليفه رحمة بهم وإصلاحا لنفوسهم .

٣ – من الناس من يمشى بالغواية ويسعى فى الأرض الفساد ويريد أن يرى غيره وقد استعبدته شهواته ، وهؤلاء حذرنا الله منهم ومن شرهم فلنكن منهم على حذر .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩)
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

(بالباطل) بدون حق أو بدون مقابلة حقيقية (عدوانا) تعديا على الحق ومجاوزة له (تجتنبوا) اجتناب الشيء المباعدة عنه وتركه جانبا (كبائر) جمع كبيرة وهى الذنب العظيم (نكفر) نغفر ونمح (سيئاتكم) صغائر ذنوبكم جمع سيئة وهى الفعلة القبيحة التى تسوء صاحبها أو غيره عاجلا أو آجلا .

المعنى العام :

بعد أن ذكرت الآيات فيما تقدم كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد ، وعدم دفع الأموال إلى السفهاء ، وإيتاء الرجال والنساء نصيبهم مما ترك الوالدان والأقربون ونصيب كل وارث مما ترك المتوفى من مال ، ودفع مهور النساء وعدم أخذ شيء منها ، بين الله هنا قاعدة عامة للتعامل فى الأموال تطهيرا للنفس وبعداً بها عن أكل الحرام فقال : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) أى لا يحل لكم أن تأخذوا مالا للغير بدون حق أو بدون مقابلة حقيقية له ، وعبر بقوله « أموالكم » بإضافة المال إلى الجميع للتنبيه على تكافل الأمة فى حقوقها ومصالحها فهو بذلك يجعل ملك كل فرد من المؤمنين مالا لأمته كلها مع احترام الملكية وحفظ حقوقها ،

وهذا التعبير يؤذن بأن أموال الأفراد لها اعتبار عام يجعلها ذات وظيفة اجتماعية بما رتب الشرع فيها من حقوق وواجبات .

(إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أى لاتكونوا من ذوى الأطماع الذين يأكلون أموال الناس بغير مقابل من عين أو منفعة ، ولكن كلوها بالتجارة التى قوام الحل فيها التراضى فيما بينكم (ولا تقتلوا أنفسكم بأكل أموال الناس بالباطل ، أو هو نهى عن قتل النفس حقيقة بالانتحار ، أو أن يقتل بعضكم بعضا وعبر بذلك للمبالغة فى الزجر والإشعار بتعاون الأمة ووحدتها لجناية الانسان على غيره جناية على نفسه ولأن قتل الانسان لغيره يؤدى إلى قتله قصاصا أو ثأرا فكأنه قتل نفسه (إن الله كان بكم رحيما) إذ نهاكم عن أكل الأموال بالباطل وعن قتل أنفسكم لحفظ بذلك أموالكم ودماءكم . وكل المحرمات فى الاسلام ترجع إلى الإخلال بحفظ الأصول الكلية الواجب حفظها وهى : الدين، والنفس ، والعرض ، والعقل ، والمال والنسب . (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) ومن يفعل مانهى عنه من أكل الأموال بالباطل وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق عدوانا بأن يكون فعله على سبيل التعدى على الحق بأن يتعمد إتيان الفعل وهو يعلم حرمته وهو أمر يتعلق بالقصد ، وظلما بأن يفعل مالا يحل دون أن يتحرى ويجتهد فى استبانة ما يحل له وهو متعلق بالفعل (فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) فسوف نحرقه يوم القيامة بنار حامية وذلك أمر هين على الله لايمنع منه مانع . والوعيد هنا متعلق بالأمرين جميعـــا : التعدى والظلم .

وبعد النهى عن أكل الأموال بالباطل وعن قتل النفس وهما من كبائر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها

وخطرها وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ورتب على اجتنابها مغفرة ماعداها من السيئات التي ليست من الكبائر فقال : (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أنواعا من الكبائر ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع . قال : هي إلى السبعين أقرب . لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار .

والذنوب الكبائر قد ورد ذكرها في أحاديث كثيرة[1] ، وهي كذلك كل ذنب يفعل مع الاستهانة من فاعله والإصرار عليه وعدم المبالاة بأمر الله ونهيه فإنه يكون كبيرة لهذه الأسباب وإن صغر . أما الذنب الذي يرتكبه فاعله لعارض من غضب أو ثورة شهوة وصاحبه يخاف الله ولا يستحل محارمه ويندم على فعله فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — ان الله تعالى يجعل قاعدة التعامل في المجتمع قائمة على التبادل والتقابل ويحرم كل سبب غير مشروع في أخذ الأموال ويسميه باطلا كالربا والفسق والسرقة ونحو ذلك .

٢ — الدماء والأموال معصومة محرمة فمن اعتدى عليها فقد اعتدى على نفسه وعرضها للمهالك في الدنيا والآخرة .

٣ — اجتناب الكبائر يستوجب عند الله مغفرة الصغائر .

---

(١) منها ماروى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكبائر سبع : أولها الاشراك بالله ، ثم قتل النفس بغير حقها ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم الى أن يكبر ، والفرار من الزحف ، ورمى المحصنات ، والانقلاب الى الاعراب بعد الهجرة » . وهناك أحاديث كثيرة تتضمن من الكبائر غير هذه السبع .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْأَلُوا ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا .

(لاتتمنوا) التمنى : هو تشهى حصول الأمر المرغوب فيه (من فضله) من إحسانه ونعمه المتكاثرة (موالى[1]) ورثه .

المعنى العام :

بعد أن نهى الله عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس نهى عن سبب ذلك وهو تطلع الإنسان إلى ماعند الغير واشتهاء أن يكون له ، وذلك هو الحسد المنهى عنه وفى ذلك يقول ابن عباس رضى الله عنهما « لا يتمنى الرجل فيقول : ليت لى مال فلان وأهله - فنهى الله عن ذلك - ولكن يسأل الله من فضله » .

وفى النهى عن التمنى تطهير لقلوب المؤمنين من الطمع والحسد وقد سبقت الآيات بتطهير جوارحهم من أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس وبذلك تكتمل لهم طهارة الظاهر والباطن . وليس من خلق المؤمنين فى شىء أن يستغرق الانسان فى الأحلام والأمانى وينظر فى حقد إلى ما فضل الله به بعض عباده من رزق موفور وصحة مكتملة وعقل سديد إلى غير ذلك من

(١) جاءت كلمة « المولى » بمعنى الوارث والسيد والعبد والناصر .

نعم الله التى لاتحصى، وإنما الواجب أن يستخدم كل وسائل السعى والعمل التى منحها الله له وأن يستخدم تفكيره فيما يعود بالخير والنفع عليه وعلى أمته، وقد تكفل الله له بنصيب مما يجهد فيه نفسه، الذكر والأنثى فى ذلك سواء (الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) ثم أمره أن يلجأ إليه لتحقيق الخير فى مسعاه فهناك من الأسباب ما يخرج عن قدرة الانسان كاعتدال المناخ لسلامة الزرع من الآفات ونزول المطر لنمو النبات وملاءمة الظروف الجوية للملاحة والطيران ، فالمسلم لايستسلم للتمنى الخادع بل يعتمد على مواهبه وقواه العقلية والبدنية فى كل مطالبه مع الرجاء فى فضل الله و توفيقه ولذلك قال بعد الإرشاد إلى الاكتساب (واسألوا الله من فضله) وإحسانه ونعمه المتكاثرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج » (إن الله كان بكل شىء عليما) هو العليم بوجوه الخير وما يصلح كل فرد وهو الذى علم الانسان ما لم يعلم ولايزال العاملون يستزيدونه من فضله وعلمه .

وبعد أن وجه النفوس إلى السعى والكسب وعدم القعود والتواكل وقرر بذلك القاعدة العامة لحيازة الثروة وهى الكسب انتقل إلى نوع آخر قد تأتى به الحيازة وهو الإرث وقد بينت الآيات المستحقين فيه وأنصباءهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة عباده ، وهم أصحاب القرابة والزوجية . فحافظوا على قاعدة الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتدى بعضكم على بعض لا فى كسبه ولا فى ميراثه (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) أى ولكل من الرجال والنساء جعلنا ورثة لهم حق الولاية على مايتركون من كسبهم وهم الأصول والفروع والحواشى والأزواج فأعطوهم مافرض الله لهم ولا تنقصوا

منه شيئاً (إن الله كان على كل شيء شهيداً) رقيباً وشاهداً على تصرفاتكم فلا يطمع من فى يده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً .

ما يؤخذ من الآيات

١ ـ الدعوة إلى السعى والعمل وعلو الهمة وترك التمنى وحياة البطالة والكسل .

٢ ـ الاعتماد على الله وسؤاله من فضله بعد اتخاذ الأسباب واستنفاد كل وسائل السعى فى الحياة .

٣ ـ تطهير النفوس من حسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ومن الطمع فى حقوق الآخرين .

٤ ـ الأمر بإيتاء الورثة نصيبهم الذى فرضه الله لهم فلا يطمع فيه أحد وينقص منه شيئاً .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥).

(قوامون) يقومون عليهن ويتحملون مسئولياتهن (قانتات) مطيعات لله قائمات بما عليهن للأزواج (حافظات للغيب) يحفظن ما يجب عليهن حفظه فى حال الغيبة (نشوزهن) عصيانهن وترفعهن عن طاعة الزوج - عن ابن عباس: هو أن تستخف بحقوق زوجها ولا تطيع أمره (فعظوهن) انصحوهن بكلام يلين القلوب القاسية (واهجروهن) اعتزلوهن.

المعنى العام:

لما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتا فى الأعمال والأنصباء، وكان ذلك مبعثاً لفكرة التسوية عند من لا يحكمون الطبيعة ولا يفهمونها - بينت الآيات أن الحكمة فى ذلك ترجع إلى طبيعة كل من الرجل والمرأة، فالرجل بماله من قوة كلف بالجهاد والأعمال الشاقة، ولما عليه من تبعات مالية أعطى نصيباً أكثر من نصيب المرأة، وبهذا وذاك كان له القوامة عليها. (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم).

وهذه هى الدرجة التى عبر عنها القرآن بقوله: (وللرجال عليهن درجة[1]) وليست هذه درجة السلطان والقهر وإنما هى درجة الرياسة البيتية الناشئة عن عهد الزوجية وضرورة الاجتماع ، هى درجة القوامة التى كلف الله الرجل بها مسئوليات المرأة وبنيها ومنزلها وحماية كل ذلك والمحافظة عليه ؛ تطالبه بالإنفاق وتطالبه بما ليس فى قدرتها وما ليس لها من سبيل إليه ، وقد بينت الآية منشأ هذه الدرجة وأرجعته إلى سبب فطرى وهو ماوهبه الله لطبيعة الرجل من قدرة جسمية وتحمل للمشاق ومغالبة ظروف الحياة فى مقابل ضعف المرأة الفطرى وماتتعرض له من وهن الحمل والولادة والإرضاع . وسبب كسبى وهو إنفاق الرجل من ماله على زوجه وبنيه وكفايتها مئونة السعى على الرزق حتى تؤدى واجباتها الأنوثية وهى آمنة على مصدر رزقها غير مشغولة به وفى التعبير بقوله « بما فضل الله بعضهم على بعض » دون أن يقول « بما فضلهم عليهن » إيحاء قوى بأن الرجال بعض والنساء بعض يتكون منهما « كل » لاغنى لبعض أجزائه عن الآخر كأجزاء الجسم الواحد لا يمكنه الاستغناء عن جزء منها وإن صغر .

ودرجة القوامة درجة طبيعية فى كل مجتمع قل أو كثر وليس من الحكمة فى نظر شرع أو وضع أن يترك مجتمع دون أن يعرف له رئيس يرجع إليه فى الرأى ، وعند الاختلاف ، وفى مهام الأمور ، وإذا تصورنا مجتمعا على هذا الوضع كان مآله حتما إلى السقوط والانحلال والفوضى وتناقض الرغبات ، وبذلك تتفكك وحداته وتتناثر لبناته وتضيع الثمرات التى عقدت به والغايات التى استهدفت من قيامه ووجوده .

وإن الذين يجادلون بالباطل فى رياسة الرجل لبيته وقوامته على شئونه لغافلون عن الفطرة الطبيعية وعن سنن الكون وضرورات الاجتماع

(١) البقرة آية ٢٣٧ .

ثم فصلت الآيات أحوال النساء فى الحياة المنزلية وتحت رياسة الرجل (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) فهذا الصنف ليس للرجال عليهن شيء من سلطان التأديب فهن مطيعات لله قائمات بحق أزواجهن عليهن يحفظن فى غيبة الزوج ما يجب حفظه من النفس والمال وذلك بمراقبتهن لله وحفظه لهن وهؤلاء خيرهن . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «خير النساء هى التى إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها » وقرأ صلى الله عليه وسلم الآية .

وقال الإمام محمد عبده : الغيب هنا هو ما يستحى من إظهاره ، أى حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين ، فلا يطلع أحد منهن على شيء مما هو خاص بالزوج والزوجة .

فعسى أن يصل معنى هذه الآية إلى مسامع نساء عصرنا اللاتى يتفكهن بإفشاء أسرار الزوجية ولا يحفظن الغيب فيها .

(واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن) والنساء اللاتى تظهر منهن بوادر العصيان والترفع عن طاعة الزوج فعظوهن بما يلين قلوبهن القاسية ويكشف لهن وجوه الخير فإن لم تجدوا استجابة منهن فاعتزلوهن فى المضاجع فان لم يفد ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولا مهين بكرامتهن[1] . وهذه الوسائل الثلاثة تختلف الحاجة إليها باختلاف بيئة المرأة وإحساسها وتقديرها لنفسها ولزوجها فمن النساء من تؤلمن النظرة القاسية أو الكلمة النابية ، ومنهن من لا يجدى معهن

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يضاجعها فى آخر اليوم ؟ »

ضرب أو إهانة وذلك معروف مشاهد لكل إنسان (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا) فإن عدلن عن النشوز وعدن إلى الاستقامة فلا سبيل لكم عليهن وكفوا عن إيذائهن وإيلامهن فإن ذلك يكون ظلما منكم لهن والله سلطانه عليكم أقوى من سلطانكم على نسائكم فإذا بغيتم عليهن عاقبكم وإن تجاوزتم عن هفواتهن وغفرتم تجاوز عنكم وغفر لكم .

ثم بين الله الطريق السوى الذى يتبع عند حدوث النزاع وخوف الشقاق فقال : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) هذا خطاب عام للمؤمنين يدخل فيه أقارب الزوجين وأولى الأمر الذين يقومون على مصالح المسلمين أمرهم الله - إذا توقعوا خلافا بين الزوجين - أن يبعثوا حكما من أهل الزوج يعرف حاله وحكما من أهل الزوجة يعرف حالها . ومتى صدقت إرادة الحكمين فى الإصلاح كان التوفيق الالهى رفيقهما إن شاء الله تعالى ويجب الخضوع لحكم الحكمين والعمل به . (إن الله كان عليما خبيرا) عليما بأحوال العباد وأخلاقهم وما يصلح لهم خبيرا بما يقع بينهم وبأسبابه الظاهرة والباطنة فلا يخفى عليه شىء من وسائل الإصلاح بينهم .

ما يؤخذ من الآيات :

١ - الرجال على النساء درجة القوامة والرعاية والتوجيه بما أودع الله فى طبيعتهم من قوة وبما بذلوا ويبذلون من مال فى المهر والنفقة وغيرهما .

٢ -- من صفات المرأة الصالحة طاعة الله والقيام بشئون الزوج وحفظ غيبه وسره ومراقبة لله وامتثالا لأمره .

٣ – شرع الله تأديب النساء – إذا خرجن على طاعة الأزواج – بإحدى وسائل ثلاث : الوعظ ، أو الهجر ، أوالضرب غير المهين . ولكل حالة ما يناسبها .

٤ – إذا لم تنفع وسائل التأديب وظهر الخلاف والشقاق بين الزوجين فليقم حكمان بالإصلاح بينهما والله الموفق إن صدقت النيات .

*وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا(٣٦)
الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن
فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا(٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ
قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا(٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا(٣٩) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا(٤٠) .

(الجار ذى القربى) القريب فى الجوار أو النسب (الجار الجنب) البعيد فى الجوار أو الغريب (الصاحب بالجنب) الرفيق فى سفر أو عمل ، وقيل الزوجة (ابن السبيل) المسافر أو الضيف (مختالا) معجبا متكبرا (فخورا) الذى يعدد محاسنه ويرى أنه خير من غيره (وأعتدنا) أعددنا وهيأنا (مهينا) ذا إهانة وذلة (رئاء الناس) للمراءاة والفخر بما فعل (قرينا) صاحبا (ماذا عليهم) أى ضرر يحيق بهم ؟ (مثقال) وزن (ذرة) أصغر ما يدرك من الأجسام .

المعنى العام :

سبق الكلام من أول السورة فى أحكام ووصايا تتعلق بنظام القرابة والمصاهرة وحال البيوت التى تتكون منها الأمة فناسب بعد ذلك التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له فى العبادة وحسن معاملة الطوائف المختلفة

من الناس والإحسان إليهم فى غير فخر أو خيلاء ، فأمر سبحانه وتعالى بعبادته وحده وعدم الإشراك به (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً) والعبادة تذلل وخضوع للمعبود، ولا يستحقه سوى الخالق الرازق الذى بيده كل شىء ، ومن أخلص العبادة لله لا تستذله حاجة، ولا يستعبده مخلوق ولاتذل نفسه لغير الله ولذلك قال : ولاتشركوا به شيئاً . واعتقاد النفع أو الضر من المخلوقين أو خشيتهم أو جعل رضاهم فى المقام الأول أو الاستغاثة والاستشفاع بموتاهم أو أحيائهم كل ذلك من الشرك الذى دخل حياة المسلمين ونسأل الله أن يعيذنا منه .

ثم عقب الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك بالوصية بالوالدين فقال : (وبالوالدين إحسانا) والإحسان درجة فى المعاملة فوق العدل ؛ هى درجة الإعطاء دون انتظار مقابل ، وهى درجة الفضل والزيادة . ومن أولى من الوالدين بهذا الفضل ؟ فيجب أن تكون معهما فى غاية الأدب فى القول والعمل، وأن ترحم ضعفهما وكبرهما، وأن تحفظ ذكراهما بالخير والدعاء لهما وقد فصل الله ذلك فى سورة الإسراء فى قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) . فأنت ترى أن هذه الآيات ختمت الوصية بالإحسان إلى الوالدين بما يفيد أن العبرة فى الإحسان هو مافى نفس الولد من قصد البر والإخلاص فيه وتحرى ذلك قدر طاقته ؛ وإذا صلحت النيات صلحت الأعمال . (وبذى القربى) وأحسنوا معاملة أهل قرابتكم ، وفى ذلك ترتيب طبيعى فى الأمر بالإحسان فليحسن المرء أولا صلته بربه بالعبادة والإخلاص له فذلك مبعث كل خير ثم ليحسن بوالديه وهم أصله وسبب حياته ، ثم يكون إحسانه لذوى قرباه وبهم عضده

وقوته ثم يكون الإحسان إلى الجيران وسائر حلقات الأمة ممن هم فى حاجة إلى بره وفضله (واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) فاليتيم فقد الناصر والمعين وهو الأب ، والمسكين ذو حاجة إلى المعاونة والمساعدة . وجار الإنسان قريب إليه بالمكان والسكن فالجوار ضرب من القرابة سواء كان الجار قريباً أو بعيداً نسيباً أو غريباً ، والصاحب بالجنب الرفيق فى السفر أو فى العمل وابن السبيل المنقطع فى السفر كمن فقد زاده أو نفقت راحلته أو تعطلت سيارته ، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء . كل هؤلاء أمرنا الله بالإحسان إليهم فى المعاونة والعطاء والمعاملة وحسن الخلق، وعدم القسوة عليهم . فليس الإحسان بذل المال والتصدق به كما يفهم البعض ولكنه زيادة فى البر وفضل فى العطاء وطلاقة فى الوجه وحسن فى الخلق فكلمة الإحسان كلمة تجمع كل معانى الخير ولا تقتصر على الصدقة وإعطاء المال : ولذلك ختم الله الآية بقوله (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) فالمختال المتكبر المعجب بنفسه والفخور الذى يفخر على الناس ويعدد محاسنه ويرى أنه خير من غيره، فليس فى مسلك هؤلاء إحسان وإن أعطوا، وإن أنفقوا، فعطاؤهم غير مقبول وإنفاقهم مع هذه الصفات يشعر الآخرين بالضعف والمذلة وذلك يحبط الأعمال (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم[1]) .

ثم بينت الآيات بعض المختالين الفخورين فقال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) روى عن ابن عباس أنه كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ،

---

(١) البقرة آية ٢١٣ .

فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها . ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون ، فأنزل الله تعالى (الذين يبخلون إلى قوله ـ وكان الله بهم عليما) والمراد بالبخل فى الآية أنهم يبخلون بالاحسان الذى أمر الله به فيما تقدم . فيشمل البخل بلين الكلام وإلقاء السلام والنصح فى التعليم . . . ويأمرون الناس بالبخل بلسان حالهم وكونهم قدوة سيئة لهذا الخلق الذميم ، أو بلسان المقال يتناصحون بذلك كما فعل اليهود مع رجال من الأنصار (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) ويكتمون نعم الله عليهم بإنكارها وعدم الشكر عليها بالانفاق منها ؛ ومن ذلك كتمان العالم علمه ، وكتمان الصانع سر صناعته ، وكتمان كل أمر يكون فيه نفع للناس وفائدة لحياتهم ، ولذلك توعدهم بقوله (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وهيأنا لهم عذابا يجمع بين الألم والمهانة جزاء لهم على ما اقترفوا ؛ وقال للكافرين ولم يقل لهم للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور ، لا من المؤمن الشكور .

(والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الرئاء والرياء والمراءاة سواء . والمرائى ينفق ماله لجلب مظاهر الفخر الكاذب ويحب أن يرى الناس فعله ويسمعوا به فهو حريص على ثناء الناس وتعظيمهم له لا على رضاء الله ومثوبته ، فالتقرب إلى الخلق أفضل عنده من التقرب إلى الخالق ، فعمله ينطق بعدم إيمانه بالله ولا باليوم الآخر ومافيه من حساب وجزاء ، والمرائى يتحرى مواطن الفخر ينفق فيها وإن كان إنفاقه فى غير طاعة ، ومن ذلك ما نراه من إعداد الولائم يدعى إليها الأغنياء وذوى الجاه ويحرم منها من ذاق قسوة الحياة ، وهؤلاء المراءون يكفيهم أن القرآن سجل عليهم أن قرينهم الذى أغراهم بهذا الموقف من الله ومن خلق الله هو الشيطان منبع الشر والفساد (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) إنه قرين سوء وبئس القرين . (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا

مما رزقهم الله) استفهام على سبيل الذم والتوبيخ ؛ أى ما الذى كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله واليوم الآخر إيمانا يظهر أثره فى أعمالهم وأنفقوا مما رزقهم الله غير بخلاء به ولا مرائين ؟ إن فعل هؤلاء جدير بأن يتعجب منه فهم يتركون سبيل الخير والرشاد ويسلكون طريق الشر والضياع والفساد (وكان الله بهم عليما) يعلم ما ينفقون وما يكتمون ، ويعلم ما فى نياتهم عند الانفاق من إخلاص أو رياء ، فليكن المؤمن على حذر فأمور الخلائق عند الله مكشوفة (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) فهو تعالى لا ينقص أحداً من أجر عمله شيئاً ما وإن صغر كذرة الهباء ، ويزيد المحسن فى حسناته فيضاعفها الله إلى عشرة أضعافها ، وإلى سبعمائة ضعف أو أضعافاً كثيرة بغير حد (ويؤت من لدنه أجراً عظيما) فهو واسع الفضل والعطاء يزيد المحسنين من فضله ويعطيهم من لدنه عطاء كبيرا وفى ذلك ما يرغب العاملين فى الاستزادة من الخير .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — عبادة الله وحده والإخلاص له أساس الفضائل كلها .

٢ — رفع مقام الوالدين حيث جاء الأمر بالإحسان بهما مقترنا بالأمر بعبادة الله وعدم الشرك به .

٣ — وضعت الآيات أساس التضامن الاجتماعى برعاية سائر طوائف الأمة وسد حاجة المعوزين والإحسان إليهم .

٤ — البخل ، وكتمان فضل الله ، والإنفاق تظاهرا ورياء ينافى الإيمان بالله واليوم الآخر .

٥ — القرين الصالح عون على الخير مرغب فيه ، وقرين السوء

داع إلى الشر يوسوس بالسيئة ويمنع الحسنة (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) .

٦ — إن الله عادل رحيم ذو الفضل العظيم . فمن عدله (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها[١]) . (إن الله لا يظلم مثقال ذرة[٢]) . ومن رحمته (كتب ربكم على نفسه الرحمه[٣]) . (ويعفو عن كثير[٤]) . (إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[٥]) . ومن فضله (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة[٦]) (وإن تك حسنه يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما[٧]) . (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها[٨]) .

---

(١) الأنعام ١٦٠ .
(٢) النساء آية ٤٠ .
(٣) الأنعام آية ١٢ .
(٤) الشورى آية ٣٠ .
(٥) الزمر آية ٥٣ .
(٦) البقرة آية ٢٤٥ .
(٧) النساء آية ٤٠ .
(٨) الأنعام آية ١٦٠ .

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا(٤١)
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ
وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا(٤٢)

(هؤلاء) أمتك (يود) يحب ويتمنى .

المعنى العام :

إذا كان الله لا يضيع مثقال ذرة من عمل العاملين فكيف يكون حال الناس إذا جمعهم يوم القيامة وجاء بالشهداء عليهم وهم الأنبياء (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) وفى الاستفهام تصوير لهول هذا اليوم وشدة أمره وشأنه وفى هذا المعنى قوله تعالى : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم » فتعرض أعمال الأمم على أنبيائها فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ماجاء به من العقائد والتعاليم فهم الناجون ، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فهم الخاسرون ، وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم .

وقوله : (وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ، يراد به شهادة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين على أمته وهذا هو الموافق لقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على . فقلت يارسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم . إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : حسبك الآن ، فإذا عيناه تذرفان .

فهل يعتبر المسلمون بهذا كما اعتبر به الشهيد الأعظم فيستعدون لهذا اليوم باتباع سنته ، واجتناب جميع البدع والتقاليد الدينية التى لم تكن فى عهده حتى يكونوا من الناجين الفائزين (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً) إذا جاء ذلك اليوم يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوه أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض فيكونوا وإياها سواء كما قال تعالى : «ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا» . وهؤلاء الكافرون يكتمون الله ويكذبون أمامه بإنكار شركهم كما صور حالهم بقوله : «ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فإذا قالوا ذلك شهد عليهم أنبياؤهم بالكفر والعصيان فيتمنون إذ ذاك لو تسوى بهم الأرض ولا يكونون كتموا الله وكذبوا أمامه هذا الكذب الذى فضحهم فيه أنبياؤهم المرسلون .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

(عابرى سبيل) يقال عبرت الطريق أى قطعته من جانب إلى جانب (الغائط) المكان الذى يقصد لقضاء الحاجة (لامستم) ملامسة النساء : الإفضاء إليهن (فتيمموا) اقصدوا (صعيدا) الصعيد : وجه الأرض (طيبا) طاهرا (عفوا) كثير العفو ، والعفو عن الذنب : محوه وجعله كأن لم يكن (غفورا) عظيم المغفرة ، والمغفرة : ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

المعنى العام :

بعد أن وصف الله تعالى أهوال يوم القيامة، ومايلقاه الناس فيه، وشهادة أنبيائهم عليهم وهم وقوف بين يديه ينتظرون حكمه ، وتمنى الكافرين لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا — وصف فى هذه الآية الوقوف بين يديه فى الصلاة ومايجب فيه من كمال العقل واستحضار القلب وطهارة النفس من الأرجاس ، والبدن من الأحداث والأخباث فقال : (يأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون)، فنهى المؤمنين عن قرب الصلاة وهم سكارى إلى أن تعود يقظتهم ويعرفوا ماينطقون به من قراءة وذكر ودعاء ، وقد جاء النهى بقوله « لا تقربوا الصلاة » دون قوله : لا تصلوا وهو أسلوب معروف فى الكلام العربى وفى القرآن خاصة ومنه قوله تعالى : (ولا تقربوا الفواحش . .).

(ولا تقربوا مال اليتيم . .) . (ولا تقربوا الزنا . .) . والنهى عن الفعل بهذه الصيغة يتضمن النهى عن مقدماته كذلك . فى الآية التى نحن بصددها يكون النهى عن الصلاة فى حال السكر وعن مقدماتها من المكث فى المسجد والإقامة لها . ونهاهم كذلك عن فعل الصلاة وعن قرب محالها وهى المساجد فى حال الجنابة حتى يغتسلوا إلا أن يكون عبورا واجتيازا من جانب إلى جانب من غير مكث . (ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا) روى يزيد بن حبيب أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم فيردون الماء ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد فأنزل الله هذه الآية .

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) المراد بالمرض : المرض الذى يخشى زيادته ، أو تأخر برئه باستعمال الماء كالقروح وبعض الأمراض الجلدية ، والسفر يشمل الطويل والقصير ، والمراد بالمجىء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شىء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء : غشيانهن .

فالمريض والمسافر والمحدث حدثا أصغر وملامس النساء إذا عدم الماء أو تعذر استعماله فليقصدوا وجها طاهرا من الأرض فيمسحوا بوجوههم وأيديهم منه (إن الله كان عفوا غفورا) والعفو هنا التيسير والسهولة فمن عفوه تعالى أن أسقط فى حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل وشرع التيمم وأباح فعل الصلاة به ، ومن مغفرته أن ما كان من الخطأ فى صلاة السكارى لم يحاسبهم عليه .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـ تحريم فعل الصلاة أو مقدماتها على السكران . وكان ذلك قبل

تحريم الخمر ثم حرمت تحريما مؤبدا بقوله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون) قال عمر لما سمعها . انتهينا ، انتهينا .

٢ ـ تحريم فعل الصلاة أو المكث فى المسجد على الجنب ويباح له المرور لحاجة دون الجلوس فيه .

٣ ـ الأصل فى الطهارة : الوضوء للمحدث حدثا أصغر ، والاغتسال للجنب ، فمن كان مريضا ، أو على سفر ، أو محدثا حدثا أصغر أو جنبا ولم يجد الماء أو يشق عليه استعماله فقد رخص له فى التيمم .

٤ ـ التيمم هو أن يضرب بيديه على الصعيد الطاهر ضربة يمسح بها وجهه وضربة يمسح بها يديه إلى المرفقين . وقيل يكفى ضربة واحدة للوجه واليدين .

٥ ـ شرع التيمم من خصائص هذه الأمة تيسيرا من الله ورحمة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل فعنده مسجده وطهوره ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان يبعث النبى إلى إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ
أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى
بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ
وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ
وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

(نصيبا) حظا (السبيل) الطريق القويم (غير مسمع) يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه (وراعنا) إما بمعنى راقبنا وانظرنا، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهى : « راعينا » . (ليا بألسنتهم) فتلا بها وتحريفا (وطعنا فى الدين) قدحا فيه (أقوم) أعدل وأفضل .

المعنى العام :

بعد ما تقدم فى الآيات من الأحكام الشرعية التى أمرنا الله بالمحافظة عليها وعدم مخالفتها ، أرشدنا فى هذه الآيات إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى شيئا إذا لم يقترن به تطهير الباطن حتى تنال مرضاة الله ولا نكون كفريق ممن أتاهم نصيبا من الكتب السماوية فاستبدلوا الضلالة بالهدى وأظهروا غير مايضمرون فاستحقوا لعنة الله عليهم بسبب كفرهم ومكرهم ، وقد صورت الآيات حالهم فى قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) فهؤلاء الذين آتاهم الله حظا من وحيه المنزل فيه البشرى برسالة

محمد صلى الله عليه وسلم يكفرون به، ويؤثرون الضلالة على الهدى، ويريدون أن يضل المؤمنون طريق الحق كما ضلوا، عداوة منهم وحقدا على المسلمين (والله أعلم بأعدائكم) فهو يكشف لكم أحوالهم ويحذركم منهم فلا تركنوا إليهم ولا تستنصروا بهم (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) يتولى شئونكم وينصركم على أعدائكم بتوفيقكم وهدايتكم لأسباب النصر من الوحدة والتعاون والإعداد للأعداء وسائر الوسائل التى تؤدى إلى القوة والعزة .

ثم بين الله هؤلاء . الذين آتاهم نصيبا من الكتاب فآثروا الكفر على الإيمان فقال (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) يتأولون القول بحمله على غير معناه ، أو ينقلون كلمة أو جملة من موضعها فى التوراة ويضعون غيرها فى مكانها ، وقد حدث الأمران « التأويل والتحريف » من اليهود (ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مسمع ، وراعنا ، ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) فكانوا فى خطابهم مع الرسول صلى الله عليهم وسلم يظهرون فى كلامهم خلاف ما يضمرون ويذكرون من الكلام مافيه تورية فيكون ظاهره مقبولا وهم يريدون السب والاستهزاء ، فمن ذلك قولهم (واسمع غير مسمع) فهو يحتمل الذم والدعاء عليه بعدم السمع أى : اسمع لا سمعت ، أو غير مجاب إلى ما تدعو إليه ، ويحتمل المدح أى: اسمع غير مسمع مكروها أو أذى . وقولهم (راعنا) يحتمل أن يكون معناه : راقبنا وانظرنا ، ويحتمل السب والشتم بكلمة عبرية كانوا يتسابون بها وهى كلمة « راعينا » أو جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة[1] ، يقولون ذلك (ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) فهم يحرفون ويفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا (ولو أنهم قالوا

(١) أى الطيش .

سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) ولو أنهم سلكوا سبيل الصدق والصراحة فقالوا : سمعنا قولك وأطعنا أمرك لعلمهم بصدقك ووجود الأدلة والبينات على رسالتك ، ولو قالوا : اسمع وانظرنا بعبارات صريحة مهذبة لا تحتمل التواء لكان هذا القول خيراً لهم وأصوب مما قالوه (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) ولكن خذلهم الله بسبب كفرهم وأبعدهم عن رحمته وألطافه فلا يؤمنون إلا إيمانا ضعيفا لاغناء فيه ولا وزن له ، أو لا يؤمن منهم إلا نفر قليل .

وقد نهى الله المؤمنين عن التشبه بهؤلاء الكافرين فيما ينطقون به من ألفاظ التورية والتمويه، وأمرهم بالصراحة والوضوح فقال : (يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ،وقولوا انظرنا،واسمعوا،وللكافرين عذاب أليم)(١).

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـــ ذكرت الآيات بعض خصائص اليهود ومسلكهم فى كفرهم .

(ا) تلهفهم على الضلالة وسعيهم إليها كما يسعى المشترى إلى اقتناء سلعه فيبذل ثمنها .

(ب) حقدهم على غيرهم ممن هداهم الله وسعيهم لفتنتهم وإضلالهم (ويريدون أن تضلوا السبيل) .

(ح) جبنهم ، ونفاقهم ، وسوء أدبهم الذى ظهر فيما ينطقون به من كلام ظاهره مقبول وهم يقصدون به السب والإهانة والإيذاء .

(د) عنادهم فى الكفر،وإصرارهم عليه ـــ بعدماعرفوا الحق ـــ

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٤ .

بغيا وعنادا (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)[١] .

(هـ) وجبت عليهم لعنة الله ولازمتهم نقمتة بسبب كفرهم وعنادهم .

٢ ـ الإرشاد إلى أن تكون تصرفاتنا وعلاقاتنا على أساس من الحقائق التى كشفها الله من دخائل نفوس أعدائنا فلا ننخدع بمظاهر الود الكاذب وننسى تحذير الله لنا (والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) .

(١) سورة البقرة آية ١٤٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا(٤٧) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا(٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا(٥٠)

(نطمس) الطمس إزالة أثر الشيء (فنردها على أدبارها) نرجعها إلى الوراء (يزكون أنفسهم) ينسبون إليها التطهير والتبرئة من الذنوب (فتيلا) الفتيل : الخيط الذى فى شق نواة التمرة ، وهو كناية عن تحقير الشيء وصغره (يفترون) يختلقون (إثما مبينا) ذنبا عظيما .

المعنى العام :

ما تزال الآيات تتحدث عن اليهود وتكشف طرفا من طبائعهم فبدأت بندائهم ، داعية إلى الإيمان بما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معهم من التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام وما فيها من أصول الدين وأركانه التى لا يختلف فيها دين عن دين ، وأتبعت الآية هذا النداء بإنذار صريح بأن يحل عليهم عقاب الله وتنزل بهم لعنته إذا لم يؤمنوا (يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) والطمس إما معنوى : وهو طمس مقاصدهم ووجوه مساعيهم فى الكيد للاسلام ، وردهم على أدبارهم إلى البلاد

التي جاءوا منها (وإما حسيّ: بطمس آثارهم من بلاد الحجاز أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أو ننزل بهم الهلاك كما أهلكنا أصحاب السبت من اليهود الذين تجاوزوا حدود الله بصيد الحيتان فيه وقد نهوا عنه (وكان أمر الله مفعولا) أي إنما أمره بإيقاع شيء ما نافذ لامحالة وفيه تهديد شديد بإيقاع ما توعدهم به : قال ابن عباس : يريد . لاراد لحكمه ، ولاناقض لأمره ، فلايتعذر عليه شيء يريد أن يفعله .

ثم بين أن هذا الوعيد بطمس الوجوه والرد على الأدبار واللعن إنما هو لجريمة الكفر ، أما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عنها (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) الشرك بالله هو الاعتقاد بأن لأحد غير الله سلطة وتأثيرا في شيء ، أو إشراك غيره معه في العبادة ، أو أخذ شيء من أحكام الدين والحلال والحرام عن بعض البشر دون الوحي ، والشرك إثم عظيم لايغفره الله لأنه يناقض التوحيد الذي حرر الله به الرقاب من ذل العبودية لغيره فلا تخضع خضوع عبودية مطلقة إلا لمن خضعت لسنته الكائنات . أما مادون الشرك من الذنوب فيغفره لمن يشاء من عباده . ومشيئته موافقة لحكمته فقد أخبر أنه يغفر للذين يتوبون من قريب ، والذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، والذين يتبعون السيئة الحسنة ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، أما الذين لا يتوبون من الذنوب ، ولا يستشعرون عظمة الله عندما يلمون بمعصية ، ولا يتبعون سيئاتهم بالحسنات التي تزيل آثارها السيئة فقد اقتضت مشيئته معاقبتهم على مااقترفوا من إثم ولا تنفعهم دعواهم أنهم يحسنون الظن بالله . وكذبوا ؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل (ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) ومن يشرك بالله واجب الوجود بأن يجعل لغيره شركة ما معه فقد اختلق ذنبا مفسدا عظيم الفحش سيء الأثر .

(ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) ألم يصل إلى علمك - والاستفهام للتعجب - حال أولئك الذين يمدحون أنفسهم بالبـــاطل وينسبون إليها التطهير والتبرئة من الذنوب فقالوا « نحن أبناء الله وأحباؤه » وقالوا : « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » وقالوا : « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » وقد حدثنا القرآن عن ذلك ، وما يزال اليهود يرددون مثله اليوم ويزعمون أنهم « شعب الله المختار » . وقد عجّبت هذه الآية من خلقهم هذا إذ يزكون أنفسهم ، وقررت أن التزكية الحقيقية مرتبطة بفعل الخير والدعوة إلى الحق لا فرق فى ذلك بين يهودى وغير يهودى ، فمن آمن وأحسن فهو الذى يزكيه الله،ويوليه حبه،ولا يظلم الناس فى ذلك فتيلا (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) ثم جاءت الآية التالية صريحة فى أنهم يفترون على الله الكذب فى ذلك . فإن الله لم يجعلهم أبناءه وأحباءه بل هم بشر ممن خلق يعذبهم بذنوبهم كسائر عباده ، ولم يجعلهم شعبه المختار ولم يميزهم بميزة تقتضى مايزعمونه من تزكية أنفسهم (انظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به إثما مبينا) .

مايؤخذ من الآيات :

١ — دعوة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى الإيمان برسالة محمد والكتاب الذى أنزله الله إليه مصدقا لما معهم (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه(١)) .

٢ — الوعيد والتهديد بالذلة والهلاك،وحجبهم عن طريق الخير،وردهم إلى الضلال إن لم يؤمنوا برسالة الإسلام .

٣ — من أشرك بالله فلا مغفرة له ويغفر الله مادون ذلك لمن يشاء .

(١) سورة المائدة آية ٤٨ .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مامن نفس تموت لا تشرك بالله شيئا إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها» .

٤ — من خلق اليهود الغرور وادعاء أنهم أفضل من غيرهم وذلك جهل بسنة الله فى الكون وحكمته التى تقضى بتزكية من يرفعه عمله . ولا يظلم ربك أحدا .

٥ — إرشاد المؤمنين إلى مثالب اليهود والتواء طبيعتهم وتفاخرهم بالباطل حتى يتجنبوا أمثال هذه المساوىء ، ويتمسكوا بأسباب القوة والعزة غير مغترين بانتسابهم إلى نبى أو دين ، فإن ذلك لا يغنى شيئا عن إقامة شرع الله والاهتداء به .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً(٥١) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيراً(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكاً عَظِيماً(٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً(٥٥).

(الجبت) الأصنام وكل ما عبدوه من دون الله (الطاغوت) الشيطان (النقير) النقرة فى ظهر النواة . وهو مثل فى القلة (يحسدون) يتمنون زوال النعمة عن صاحبها (صدّ عنه) أعرض .

المعنى العام :

وصف الله اليهود بالبخل والحسد وهما من شر الخصال ، يمنعون مالهم ، ويتمنون ما لغيرهم . وقد روى فى سبب النزول أن حيي بن أخطب وكعب ابن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مكة مع جماعة من اليهود يحالفون قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم : أنتم أهل كتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا ، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم . ففعلوا ، فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا ، وقال أبو سفيان : أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقال كعب : ماذا يقول محمد ؟ قالوا يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال : وما دينكم ؟ قالوا : نحن ولاة البيت ، ونسقى الحاج

ونقرى[١] الضيف ، ونفك العانى[٢] ، وذكروا أفعالهم فقال : أنتم أهدى سبيلا . فنزل قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) فمن العجيب أنهم ينصرون المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم وما أنزل الله من كتبهم ويقولون : إن المشركين أهدى وأرشد طريقا فى الدين من المؤمنين فاستحقوا بذلك خزى الدنيا والآخرة (أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أولئك الذين كتب الله عليهم الخزى والخذلان بما فعلوا وقالوا ، ومن يخزه الله ويخذله فلن ينصره أحد من دون الله . (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار. أى ليس لهم نصيب من الملك ، ولو كان لهم منه شىء لم يعطوا منه أحدا ولو بقدر نقير وذلك لبخلهم وحسدهم .

ولما كان قولهم للمشركين : إنهم أهدى سبيلا من المؤمنين قولا نابعا من حسد أنفسهم بعد ما تبين لهم الحق ، قال تعالى منكرا عليهم حالهم (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) فهم يحسدون النبى صلى الله عليه وسلم على نبوته ، ويحسدون أصحابه على الإيمان به ، ويحسدون العرب على ظهور النبوة فيهم . والحسد مذموم ، وصاحبه مغموم ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقيل : الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء ، وأول ذنب عصى الله به فى الأرض ، فأما فى السماء فحسد إبليس لآدم ، وأما فى الأرض فحسد قابيل لهابيل. فهؤلاء يريدون أن يضيق فضل الله بعباده، ولا يحبون أن يكون لأحد فضل سواهم . وليس لحسدهم مبرر

(١) نقرى : نكرم .

(٢) العانى : الأسير .

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) فليس بدعا أن نؤتى محمداً وأتباعه مثل ذلك فالعرب من آل إبراهيم فإنهم من ذرية ولده إسماعيل . وفى الآية رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة كما كان لآل إبراهيم من قبل (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) فمن اليهود من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ومنهم من أعرض عنه، أو فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من لم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيراً) وكفى بالنار الموقدة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — ذكرت الآيات من صفات اليهود وأخلاقهم : —

(ا) أنهم لا ينتفعون بهداية السماء وهى بين أيديهم ، ويفضلون الكفر على الإيمان (يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

(ب) البخل بما فى أيديهم. ولو ملكوا خزائن رحمة الله لأمسكوا ولحرموا الناس من فضل الله وخيره (فإذا لا يؤتون الناس نقيراً) .

(ح) الحسد وتمنى زوال النعمة عن الغير ، وقد أعماهم الحسد عن اتباع الحق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — سجلت الآيات عليهم لعنة الله، وعدم نصرته إياهم ، واستحقاقهم بكفرهم عذاب النار (وكفى بجهنم سعيراً) .

٣ — فى الآيات تهديد لكل من أوتى نصيبا من العلم ولم يعمل به .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم
بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦)
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا
ظَلِيلًا (٥٧) *

(كلما نضجت) كلما احترقت (مطهرة) مبرأة من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية (ظلا ظليلا) ظلا غزيرا كثيرا دائما لا تنسخه الشمس.

المعنى العام :

فى نهاية الآية السابقة توعد الله تعالى من كفر بآياته وصدّ عن رسله بسعير جهنم ثم فصل هذا الوعيد بقوله (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) فذكر أن الذين كفروا بآياته ودلائله الدالة على حقائق دينه - ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا لأنه أدل الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها - قد أعد الله لهم نارا حامية يدخلونها ويعذبون فيها (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) كلما احترقت جلودهم بدلوا غيرها. ذلك لأن الجلود إذا احترقت يقل الإحساس بالاحتراق بعد ذلك أو يزول فيبدل الله جلودا حية غيرها (ليذوقوا العذاب) ويحسوا به إحساسا مستمرا ، ومن هنا قال بعض المفسرين : إن المراد استمرار العذاب ودوامه . (إن الله كان عزيزا حكيما) عزيز لا يغلب على أمره ، حكيم فى فعله . كان من حكمته أن جعل الكفر والمعاصى سببا للعذاب ، وجعل الإيمان والعمل الصالح سببا للنعيم المقيم وبين ذلك بقوله : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) فأخبر عن مآل السعداء فى جنات عدن التى تجرى الأنهار فى جميع أرجائها وهم خالدون فيها خلودا دائما

لا يحولون ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولا ،وهؤلاء السعداء هم الذين استقامت عقيدتهم بالإيمان واستقام سلوكهم بالعمل الصالح ، وقد قرن الله الإيمان بالعمل الصالح فى آيات كثيرة إذ لايكاد يوجد إيمان بغير عمل صالح إلا أن يكون إيمانا عقيما لاغناء فيه ولا فائدة منه (لهم فيها أزواج مطهرة) من الأذى والأخلاق الرذيلة ، مبرأة من كل عيب يشين نساء الدنيا حسا ومعنى (وندخلهم ظلا ظليلا) قد يراد به الظل الحقيقى الذى لم تصل إليه الشمس، وقد يراد به العزة والمتعة،وقد جرى التعبير عن ذلك بالظل ، ولعل ذلك إشارة إلى النعيم الروحانى بعد ذكر النعيم الجسمانى كما عهد فى القرآن ، ويؤكد ذلك إسناده إليه سبحانه و تعالى[1] .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — أعد الله للكافرين ناراً حامية يصلونها ويدوم عذابهم فيها .

٢ — المؤمنون الذين يعملون الصالحات هم السعداء الذين وعدهم الله بالنعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

٣ — هؤلاء السعداء لهم نعيم روحى مع النعيم الجسمانى لتكتمل سعادتهم وذلك هو الفوز العظيم .

---

(١) تفسير المنار ص ١٦٨ ح ٥ .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا(٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(٥٩)

(الأمانات) الحقوق التى يجب على الإنسان أداؤها (تنازعتم) اشتد اختلافكم (تأويلا) مآلا وعاقبة .

المعنى العام :

هاتان الآيتان هما أساس الحكومة الإسلامية، وفيهما ما يجب أن يؤسس عليه شأن المجتمع الإسلامى من أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل بين الناس (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

والأمانة : كل حق للغير واجب الأداء وهى على ثلاثة أنواع :-

النوع الأول : أمانة العبد مع ربه، وهى امتثاله ما أمر به واجتنابه ما نهى عنه ، فالمعاصى كلها خيانة لله عز وجل .

النوع الثانى : أمانة العبد مع الناس ، وتشمل كل أنواع العلاقات والمعاملات بين الإنسان وغيره .

فالعلم أمانة : وأداؤها بتيسيره ونشره بين الناس مع الإخلاص فى ذلك .

والعمل أمانة : وأداؤها بالإتقان فيه وعدم التهاون والتفريط .

والمعاملة أمانة : وأداؤها بعدم الغش والخديعة والاستغلال فيها .

والعلاقة بين الزوجين أمانة : وأداؤها بالإخلاص فيها وحفظ أسرارها والمودة والرحمة والمعاشرة بإحسان كما أمر الله .

والحكم بين الناس أمانة : وأداؤها بتحرى الحق والعدل والاهتداء فيه بشرع الله .

النوع الثالث : أمانة الإنسان مع نفسه ، وتتحقق بأن يختار الإنسان لنفسه ماهو الأنفع والأصلح له فى الدين والدنيا ، ولا يقدم على عمل يضره فى آخرته أو دنياه .

وهكذا نجد « الأمانات » كلمة عامة تشمل جميع الحقوق من مالية ، وعلمية ، وعملية ولذلك جاءت فى الآية بصيغة الجمع ووردت كذلك بهذه الصيغة فى سورة الأنفال[١] ، والمؤمنون[٢] ، والمعارج[٣] .

والحكم بالعدل هو القضاء بتلك الأمانات عند تعرضها للضياع . وعدل القاضى فى أن يتحرى المساواة والمماثلة بين الخصمين فلا يرجح أحدهما على الآخر بشىء قط .

قال الشافعى رضى الله عنه : ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين فى فى خمسة أشياء : فى الدخول عليه ، والجلوس بين يديه ، والإقبال عليهما ، والاستماع منهما ، والحكم عليهما .

---

(١) آية ٢٧ « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »

(٢) آية ٨ « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »

(٣) آية ٣٢ « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »

وقد كثرت فى القرآن الكريم آيات الحث على العدل حتى جاء فيه :
«ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى[1]» .
فالعدل شأن الله فى الخلق والتشريع والجزاء . (إن الله نعما يعظكم به) نعم الشىء الذى يعظكم به وهو هنا أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس (إن الله كان سميعا بصيرا) لا يخفى عليه شىء من أقوالكم ولا أفعالكم .

ولما كان العدل فى الحكم لا يتحقق إلا بعد معرفة الحكم من مصدره التشريعى ، وفهم الحادثة من جميع جوانبها ، ثم تحرى تطبيق الحكم على الحادثة ذكرت الآيات مصادر التشريع التى يجب الرجوع إليها فقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . فأمر بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، وأولى الأمر من المسلمين (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) .

فمصادر التشريع الإسلامى هى :

١ — القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

٢ — سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعمل بها هو طاعة الرسول.

٣ — إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة[2] . . . وطاعتهم هى طاعة أولى الأمر .

٤ — عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الكتاب والسنة .

---

(١) سورة المائدة آية ٨ .
(٢) رأى الامام محمد عبده كما نقله عنه السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار جـ٥ ص١٨٧

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فامتثلوا ما أمرتم به من الطاعة ورد الشيء المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ولا تغلبكم أهواؤكم (ذلك خير وأحسن تأويلا) ذلك الذى شرعناه لكم خير لحياتكم وقيام مصالحكم وأحسن مآلا وعاقبة لأنه يقضى على التنازع ويسد ذرائع الفتن والمفاسد .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — وجوب أداء الأمانات ، والحكم بين الناس بالعدل .

٢ — مصادر التشريع الإسلامى هى : كتاب الله، وسنة رسوله ، وإجماع أهل الحل والعقد المبنى على الاجتهاد .

٣ — التمسك بكتاب الله وسنة رسوله يقطع دابر الاختلاف والتنازع.

٤ — تحكيم الأهواء وعدم الخضوع لأوامر الله ينافى الإيمان بالله وما عنده من جزاء .

٥ — سعادة الأمة وعزتها فى الاستمساك بشرع الله وأوامر دينه (ذلك خير وأحسن تأويلا) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا(٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا(٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا(٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا(٦٣)

(يزعمون) يدعون ادعاء كاذبا (يصدون) يعرضون (بليغا) مؤثرا .

المعنى العام :

بعد أن أوجب الله سبحانه فى الآية السابقة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول ذكر فى هذه الآية أن المنافقين ومن فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه بل يريدون حكم غيره فقال : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) أى انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يدعون كاذبين أنهم آمنوا بك وبمن قبلك من الأنبياء ، ثم يصدر منهم ما يكذب دعواهم ويفضح أمرهم فهم يعرضون عن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ويريدون أن يحتكموا إلى الشيطان فى أى صورة كان سواء أكان كاهنا أو مشعوذا أو رئيسا من رؤسائهم (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) بأن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فهم لا يهتدون إلى طرق الوصول إليه (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل

الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) وإذا دعوتهم إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله أعرضوا إعراضا تاما متعمدا (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) فكيف يكون حالهم إذا نزل بهم العذاب أو أصابتهم بما صنعوا مصيبة ثم حضروا إليك يدعون ويحلفون أنهم ما أرادوا بترك التحاكم إليك وطلب التحاكم إلى غيرك إلا إحسانا فى المعاملة وتوفيقا بينهم وبين خصومهم (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) من الخبث والنفاق (فأعرض عنهم) ولا تقبل عليهم بالبشاشة والتكريم فليسوا أهلا لذلك (وعظهم) انصحهم وذكرهم بما يلين قلوبهم القاسية (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) مؤثرا يستشعرون منه الخوف بعد ما كشف الله مكنونات الشر والنفاق التى فى نفوسهم ، وقد فوض الله أمر الوعظ والقول البليغ للرسول صلى الله عليه وسلم يتصرف فى كل موقف بما يناسبه ، ومن أقدر من رسول الله على القول البليغ وقد أعطاه الله جوامع الكلم ومحاسن البيان ؟

ما يؤخذ من الآيات :

١ — ذكرت الآيات بعض صفات المنافقين وهى : ـ

(ا) ادعاء الإيمان والعمل على خلاف مايدعون .

(ب) الإعراض عن حكم الله ورسوله والميل إلى حكم سواهما .

(ح) محاولة ستر حقيقتهم بالأيمان الكاذبة وادعاء الصلاح .

٢ — أمر الرسول بعدم الالتفات إليهم والمبالاة بهم فكيدهم ضعيف.

٣ — أمر الرسول بنصحهم وإرشادهم إلى الحق ، وتخويفهم مما هم عليه من النفاق .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ
تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا
كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا
قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَٰهُمْ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨)

(شجر بينهم) اختلف بينهم واختلط (حرجا) ضيقا أوشكا (ويسلموا تسليما) ينقادوا لقضائك انقيادا لا تردد فيه .

المعنى العام :

بعد ما بين الله تعالى مسلك المنافقين فى الإعراض عن طاعة الرسول واحتكامهم إلى غيره ، ثم محاولة إخفاء أمرهم بالحلف الكاذب أظهر فى هذه الآيات خطأهم فى هذا المسلك إذ كان عليهم أن يطيعوا رسوله فطاعته واجبة (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) بأمره أو بتوفيقه، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، وكان عليهم أن يسلكوا سبيلا يوصلهم إلى مغفرة ما وقعوا فيه من ضلال بعيد (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) فالمسارعة بالعودة إلى الله واستغفاره سبيل موصل إلى قبول التوبة واستحقاق الرحمة.
ثم قررت الآيات نفي الإيمان عن كل من يحتكم لغير دين الله الذى أبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمن لا يرضى حكمه وينقاد له (فلا وربك لا يؤمنون

حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فأقسم سبحانه بربوبيته على أنه لا إيمان لهؤلاء المنافقين وأمثالهم حتى تكتمل لهم ثلاث خصال : —

١ — الاحتكام إلى رسول الله فى القضايا التى يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبين لهم وجه الحق فيها .

٢ — الإذعان النفسى لقضائه وحكمه بحيث لا يكون لديهم ضيق أو امتعاض منه .

٣ — الانقياد والتنفيذ لما يحكم به دون تمرد أو تردد .

ثم بينت الآيات رحمة الله بهذه الأمة فلم يوجب عليهم ما أوجبه على بنى إسرائيل من قتل أنفسهم والهجرة من أوطانهم ليتوبوا من عبادة العجل ولم يدخلهم فى مثل هذا الابتلاء (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) ولو فرض الله عليهم ذلك ما فعله إلا أناس قليل وهم الصادقون فى إيمانهم الذين يطيعون الله فى كل أمر مهما بلغت صعوبته وتضحياته (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا) ولو أنهم فعلوا ما أمرهم الله به لكان فعلهم ذلك خيرا لهم فى الدنيا والآخرة وأشد تثبيتا لإيمانهم وأبعد عن الاضطراب فيه (وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ، ولهديناهم صراطا مستقيما) وعد من الله بأن يؤتى العاملين المخلصين أجرا عظيما من عنده وهو أكرم الأكرمين وأن يهديهم طريق الحق والصواب وهو سبيل الذين أنعم الله عليهم فى الدنيا والآخرة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — أوجب الله على الناس طاعة رسله وامتثال ما جاءوا به من شرع الله.

٢ — سرعة الرجوع إلى الله واستغفاره وشعور القلب بألم المعصية مع العزم القوى على اجتناب الذنوب — كفيل بقبول التوبة عند الله .

٣ — ليس مؤمنا من لم يحتكم إلى شرع الله مع الإذعان النفسى والانقياد الفعلى .

٤ — المؤمن الصادق يطيع الله ورسوله فى المنشط والمكره والسهل والصعب ، والمنافق يعبد الله على حرف ولا يصبر على ابتلاء أو فتنة .

٥ — العمل بما أمر الله به يثبت الإيمان ويستوجب الأجر ويهدى إلى طريق الخير والنجاة .

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ
رَفِيقًا(٦٩) ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا(٧٠)

(الصديقين) المبالغين فى الصدق والإخلاص فى القول والاعتقاد
(والشهداء) الذين بذلوا أرواحهم فى سبيل الله (رفيقا) صاحبا .

المعنى العام :

ذكر الله تعالى فى نهاية الآية السابقة أنه يهدى الذين يفعلون ما أمرهم به صراطا مستقيما ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من الأصناف الأربعة المذكورة فى هذه الآية (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) أى أن كل من يطيع الله ورسوله على الوجه المبين فى الآيات السابقة من أول قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ـ إلى قوله : ولهديناهم صراطا مستقيما) فسينزله الله منزلا مباركا مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ونعمت هذه الصحبة المباركة (ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) ذلك الذى ذكر من جزاء من يطيع الله ورسوله هو فضل من الله على المطيعين والله وحده عليم بحسن الأعمال ودرجة الاخلاص فيها . وفى علمه الكفاية والغناء ، وفى ذلك ما يكشف أستار المنافقين لعلهم يتوبون ، ويطمئن المؤمنين الصادقين لعلهم ينشطون ويزدادون .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — من أطاع الله ورسوله فى كل أمره ونهيه فهو رفيق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

٢ — فضل الله فى هذا الجزاء عظيم يمنحه لمن حسن عمله وصدقت نيته وهو الذى يعلم السر وأخفى ، وكفى بالله عليما .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ
جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ
ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ
لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)

(خذوا حذركم) تيقظوا واستعدوا للعدو (فانفروا) اخرجوا إلى الجهاد (ثبات) جماعات متفرقة : جماعة بعد جماعة ، وسرية بعد سرية (ليبطئن) ليتثاقلن عن الجهاد أو ليثبطن غيره (شهيدا) حاضرا .

المعنى العام :

أرشدت الآيات من أول السورة إلى الأسس التى تحقق قوة الأمة وتماسكها من المساواة بين أفرادها ، ورعاية ضعفائها ، وصيانة أسرها ، وحفظ مالها ، وتوزيع الثروة فيها ، والاخلاص فى عبادة الله ، وحسن المعاملة للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والجيران والأصحاب وسائر الناس ، وإقامة الحكومة الإسلامية على أساس من أداء الأمانات والحكم بالعدل ، وطاعة الله ورسوله والاحتكام إليه فى الخصومات ، وكشفت عن حال المنافقين وفضحت مواقفهم فحققت بذلك سلامة الجبهة الداخلية وأمن الأمة فى نفسها — ثم ذكرت الآيات بعد ذلك ما يكون به صيانة الأمة من العدوان الخارجى عليها ، ورسمت طريق ملاقاة العدو فى الحرب ومعاملته فى السلم حتى يتحقق للأمة أمنها الخارجى بعد أن تحقق لها الأمن الداخلى ،وقد جاء الحديث عن مشروعية القتال، وأهدافه ، وبيان الذين يقاتلون، ومن هو العدو الداخلى المثبط الذى يجب أن يحذره المؤمنون

وأن يحصنوا أنفسهم من كيده وفتنته - جاءت هذه التفاصيل فى أربع وثلاثين آية تبدأ من قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) فأمر بالاستعداد للعدو بكل الوسائل المحققة للنصر عليه وذلك بأن نعرف حاله ومبلغ استعداده وقوته والوسائل لمقاومته وحماية البلاد منه ، فهذه الآية آمرة على سبيل الإيجاب باليقظة التامة واتخاذ الأهبة والاستعداد فى كل عصر بما يناسبه من أدوات القتال ومعرفة طرق استعمالها ودراسة العلوم التى تساعد على ذلك . ومثل هذه الآية فى عمومها وشمولها فى هذا المجال قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وعلى المؤمنين جميعا أفرادا وشعوبا وحكومات امتثال هذا الأمر والبحث عما يحققه من علم وعمل . (فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) فاخرجوا للجهاد جماعة فى إثر جماعة أو اخرجوا مجتمعين ، وذلك حسب ما تقتضيه الأحوال (وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا) وإن من بينكم المنافق الذى يتثاقل عن القتال ويثبط غيره عنه وينتحل الاعذار للتخلف عن المقاتلين وهو مع ذلك ينتظر ماذا يكون عليه حالكم بعد القتال ؟ فإن أصابتكم مصيبة من قتل أو هزيمة شكر الله على عدم شهوده الحرب معكم ، وإن منّ الله عليكم بالنصر والغنيمة ليقولن قول من لا تربطه بكم صلة أو مودة : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما بالحصول على نصيبى وسهمى فى الغنائم .

وفى هذا التعبير ما يدل على أن هؤلاء الذين يرون فوزهم فيما يحصلون عليه من ربح مادى وينأون بأنفسهم عند الشدائد خشية أن يصيبهم ضرر ليسوا من المؤمنين فى شىء ، وهم آفة الأمم وعلة المجتمعات .

ما يؤخذ من الآية :

١ - وجوب التيقظ والاستعداد لحماية الوطن الإسلامى من أعدائه ويشمل ذلك استخدام كل أساليب القوة ووسائل الدفاع .

٢ — استعداد الأمة كلها للنفير العام بتدريب أبنائها وإعدادهم للقتال امتثالا لأمر الله بالخروج للقتال جماعة إثر جماعة، أو خروج الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك .

٣ — من صفات المنافقين .

(ا) التقاعد عن القتال وتثبيط همة الغير عنه .

(ب) الفرح بنجاة أنفسهم وقد أصيب إخوانهم فى الدين والوطن .

(حـ) الحرص على النفع المادى وحده والتحسر على فواته .

(د) عدم الإحساس بمشاعر الأمة والانعزالية والسلبية .

فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ وَمَن
يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤)
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ
وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً (٧٥) ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ
ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ
ضَعِيفاً (٧٦)

(سبيل الله) هى سبيل الحق والخير والعدل (يشرون) يبيعون (سبيل الطاغوت) هى سبيل الجبروت والشر والظلم (كيد الشيطان) الكيد هو السعى فى الفساد على وجه الحيلة .

المعنى العام :

بعد أن بين الله تعالى حال الذين يبطئون عن القتال فى سبيله ذكر فى هذه الآيات طريق النجاة بالانتصار للحق وبيع الدنيا فى سبيل إعلاء كلمة الله ونيل ماعنده من ثواب مقيم فى الآخرة فقال : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى فليقاتل فى سبيل الله وما أمر به من كل معانى الخير والحق المخلصون الذين يبذلون أرواحهم وأموالهم طلبا للآخرة وثواب الله فيها (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) ومن صدقت نيته فى القتال فكان لإعزاز دين الله لا تشوبه شائبة من رياء أو طلب دنيا أو جاه فليس أمامه إلا إحدى اثنتين : الشهادة

فى سبيل الله ، أو النصر على الأعداء . ولا يخطر ببال المؤمن أن يهزم ، أو يفر . فليس ذلك من شيم المقاتلين فى سبيل الله الذين يبيعون دنياهم بآخرتهم وقد وعد الله هؤلاء أجراً عظيما لا يدرك شأنه وقدره . (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى عذر لكم يمنعكم من القتال فى سبيل الله لتقيموا التوحيد مقام الشرك ، وفى سبيل إنقاذ إخوانكم الذين استذلهم كفار مكة وأذاقوهم سوء العذاب وقد فقدوا الناصر والمعين واستغاثوا بربهم لينقذهم من ظلم أهل مكة لهم ، ويجعل لهم من عنده من يلى أمرهم وينصرهم على أعدائهم . وقد أوجب الله بهذه الآية القتال على المؤمنين لإعلاء كلمته وإظهار دينه ، ولإنقاذ المسلمين الذين يقعون فريسة الاستعباد والإذلال وقرر ، أن لا عذر يحول دون القتال لتحقيق هاتين الغايتين . (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) فالمؤمنون أقوياء بالحق الذى يقاتلون فى سبيل نصرته ، وأعداؤهم ضعفاء بالباطل والظلم والاستعلاء فى الأرض بغير الحق (فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) فلا ترهبكم كثرتهم وقوتهم فإنهم نصراء الشر والظلم ، وأنتم دعاة الخير والعدل ، وقد جرت سنة الله أن الحق يعلو على الباطل ويدمغه ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولن تقوم للباطل قائمة إلا فى غفلة أهل الحق عن نصرة حقهم والاستعداد لاستخلاصه من أيدى أعدائهم .

وفى الآية إغراء للمؤمنين على اقتحام حصون الشرك ومنازلة أعداء الله ، وأعداء الحق أولياء الشيطان فهم ضعفاء لا يخشى لهم بأس ، ولا يرهب لهم جانب .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — وجوب القتال لإعلاء كلمة الله ابتغاء لما عنده من ثواب الآخرة،

٢ — وجوب القتال لإنقاذ المظلومين من المؤمنين ونصرتهم على أعدائهم الذين يستذلونهم .

٣ — ليس للمسلمين عذر فى ترك الجهاد والاعداد له .

٤ — المؤمنون يقاتلون لنصرة الحق وسيادة الخير ، والكافرون يقاتلون للطغيان والظلم والاستعلاء .

٥ — كتب الله النصر للحق وجنده على الباطل وأهله ، فالحق قوى ، والباطل ضعيف مهين، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ
كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ
أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ
فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ
فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)

(كفوا أيديكم) امتنعوا عن القتال(يخشون الناس) يخافونهم (فتيلا) الفتيل : مافى شق النواة من الخيط ، يضرب به المثل فى القلة والحقارة(بروج مشيدة) قصور عالية أو حصون منيعة .

المعنى العام :

كان المؤمنون فى ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بعدم قتال المشركين والصبر إلى حين ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة - وكانوا يتحرقون شوقا لقتال المشركين ليثأروا لأنفسهم ، ولم يكن فرض القتال مناسبا لأسباب كثيرة ، منها قلة عددهم ، وتداخل معايشهم مع عدوهم ،وكون الدعوة فى بدء أمرها . فلما انتقلوا إلى المدينة ، وصارت لهم دار وقوة وأنصار أمرهم الله بالقتال الذى كانوا يودونه - انتصافا لأنفسهم من الذين أخرجوهم من

ديارهم بغير حق ، ومع ذلك جزع بعضهم وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا ، وكان أمرهم فى ذلك عجيبا فجاءت الآية بالاستفهام تعجيبا لحالهم من إحجامهم عن القتال مع أنهم قبل ذلك كانوا راغبين فيه (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) ولم يكن هذا شأن المؤمنين الصادقين ، بل كان من شأن ضعفاء الإيمان والمنافقين وقد ظهر خوفهم وهلعهم بما حكاه القرآن عنهم إذ قال : (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب) فهم يريدون الخلاص من فريضة القتال عليهم ويطلبون إمهالهم إلى وقت آخر حذرا من الموت، فأوضحت لهم الآية أن مايتعلقون به من متاع الدنيا هو عرض زائل قليل وأن الآخرة خير وأبقى للمتقين ، وأن الله لا يظلم الناس شيئا بل يوفيهم أجورهم كاملة (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلا) وفى ذلك تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب فى الآخرة .وتحريض على على الجهاد . ثم وضع الله أمامهم عقيدة من شأنها أن تثبت قلوبهم ، وأن تنفى عوامل الجبن والخوف من نفوسهم ، وهى عقيدة الإيمان بأن لكل إنسان أجلا معلوما عند الله لا يعدوه ، فلا يقدمه طعن أو نزال ، ولا يؤخره جبن أو فرار (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وإذا كان الموت لا مفر منه ، وكان المرء قد يقتحم المخاطر ولا يصاب بأذى ، وقد يموت وهو معتصم فى البروج والحصون فلا عذر لكم أيها الخائفون المبطئون ، ولماذا تكرهون القتال وتخافون الناس وتتمنون البقاء ؟

ثم ذكر سبحانه شأنا آخر من شئون المنافقين أشد دلالة على الحق وضعف العقل ومرض القلب فقال : (وإن تصبهم حسنة) من خصب ورزق ورواج (يقولوا هذه من عند الله) أكرمنا بها وليس لهداية

الرسول أثر فى ذلك (وإن تصبهم سيئة) من ضيق فى الرزق أو نقص فى الثمرات أو نحو ذلك (يقولوا هذا من عندك) وبسبب شؤمك ، فقد جر علينا اتباعك كل بلاء وهول ، وكانت هذه مقالة اليهود والمنافقين . ولا يزال ذلك شأن الصنف المنافق فى كل مجتمع ، وهم الذين يدخلون فى شىء من الأشياء ظاهرا وهم له كارهون ، فيعملون على زلزلته بالإرجاف وإثارة الشكوك والأوهام .

وفى مثل هؤلاء - وهم قوم فرعون - يقول القرآن الكريم « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه »[1] .

وقد ردّ الله عليهم أبلغ رد وأقواه وبين أن النعم والنقم من عند الله خلقا وإيجادا فلا يقع فى ملكه إلا مايريد (قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) فما لهم لا يعقلون ولا يفهمون حديثا ينطقون به أو يلقى إليهم . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله وهو خطاب لمن أرسل إليهم : (ما أصابك من حسنة فمن الله) من فضله وجوده وتوفيقه للصالحات وتيسيره سبل الخير ، فقدرة الإنسان وحدها قاصرة عن تحقيق النفع ما لم يصاحبها توفيق الله وتيسير الأسباب (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) بما كسبت يداك من وذنب ماوقعت فيه من إثم استوجب عقابك ومثل ذلك قوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وتعفو عن كثير »[2] وينبغى للانسان حينما تصيبه سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه ، فقد تصيبه لجهله بسنن الكون ومعرفة ماينفع ومايضر ، وقد تصيبه بسبب معصية ارتكبها أو ذنب اقترفه، وقد تضافرت الآثار على أن

(١) سورة الاعراف آية ١٣١ . (٢) الشورى آية ٣٠ .

طاعة الله من أسباب النعم ، وأن عصيانه يجلب البلاء والنقم (وأرسلناك للناس رسولا) تبلغهم شرائع الله ولا دخل لك فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات (وكفى بالله شهيدا) أنه أرسلك للناس كافة بشيرا ونذيرا ، وهو شهيد بينك وبينهم عالم بما تبلغهم به وما يردون به عليك من الكفر والافتراء .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — ليس من خلق المؤمنين الخوف والقعود عن الجهاد .

٢ — الذين يخافون قتال أعدائهم يحرصون على متاع الدنيا الفانى ويضيعون ما عند الله من ثواب هو خير وأبقى .

٣ — الآجال محدودة والأعمار مقدرة ولن ينجى من الموت مهرب أو اختفاء فى الحصون ، فلماذا الجبن وترك الجهاد ؟

٤ — ما يصيب الانسان من خير أو شر ، فهو من عند الله خلقا وإيجادا وتقديرا على حسب سنته . لأنه تعالى لا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

٥ — كل ما يدركه الإنسان من نجاح وخير ليس مستندا إلى مجرد العمل ولكنه مستند كذلك إلى توفيق الله وفضله ، فهو فى الحقيقة من الله .

٦ — ما يصيب الإنسان من سيئة فبما كسبت يداه ، وما يناله من الشر فبما اقترفه من آثام ، فالعقوبة حصاد السيئة التى زرعها فهى فى الحقيقة منه ، ومع ذلك فرحمة الله تسبق غضبه . « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة »[1]

---

(١) سورة فاطر آية ٤٥

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ
غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى
ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ
غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ
لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ
ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

(تولى) أعرض (حفيظا) تحصى عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها (برزوا من عندك) خرجوا من مجلسك (يتدبرون القرآن) يتأملون معانيه ويتبصرون مافيه (أذاعوا به) نشروه وأشاعوه بين الناس ، يستنبطونه ، يستخرجونه بتجاربهم ودقة نظرهم .

المعنى العام :

هذه الآيات متصلة بما قبلها مسايرة لها. فقد تقدم أن من أصول الشريعة طاعة الله وطاعة الرسول ، وقد أمر الله بهما معا أمراً عاما وبين جزاء المطيع وأحوال الناس فى هذه الطاعة ، ثم أمر بالقتال وبين مراتب الناس فى الامتثال . وفى هذه الآيات ذكر المؤمنين بأمر الطاعة وبين أنها لله تعالى بالأصالة ولغيره بالتبع وكشف مراوغة المنافقين فى إظهار الطاعة وإبطان المعصية فقال : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله ، والرسول مبلغ لأمره ونهيه فمرجع الطاعة

وعدمها هو لصاحب الأمر والنهى وحده (ومن تولى) وأعرض عن الطاعة (فما أرسلناك عليهم حفيظا) تحاسبهم على أعمالهم وتعاقبهم عليها ، إنما أنت نذير . ثم بينت الآيات معاملتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأمر بوجوب طاعته فقال تعالى : (ويقولون طاعة) أى أمرك مطاع لانخالف فيه (فإذا برزوا من عندك) وخرجوا من مجلسك (بيت طائفة منهم غير الذى تقول) دبرت ليلا غير الذى أظهروه لك (والله يكتب ما يبيتون) أى يبينه لك فى كتابه، ويفضحهم به بمثل هذه الآية، أو يثبته فى صحائف أعمالهم ويجازيهم عليه (فأعرض عنهم) ولا تبال بما يبيتون (وتوكل على الله) اتخذه وكيلا تفوض إليه أمر محاسبتهم (وكفى بالله وكيلا) يكفيك شرهم، ويتولى جزاءهم . (أفلا يتدبرون القرآن) فينظرون ويتفكرون فى غاياته ومقاصده حتى يتبين لهم أنه الحق من ربهم ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فلو كان من عند محمد ومن إنشائه ـ كما يزعمون ـ لوجدوا فيه اختلافا واضطرابا ، كثيرا فليس فى استطاعة أى مخلوق أن يأتى بمثل هذا القرآن الذى تضافرت الدلائل على أنه من عند الله ، فهو يحكى من أنباء الرسول والأمم السابقة مالم يشاهده محمد صلى الله عليه وسلم ولا وقف على تاريخه ، ويخبر عما سيقع فى مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها ، ويكشف حديث الأنفس وخفايا الضمائر كبيان ماتبيت هذه الطائفة ، وغير ذلك مما اشتمل عليه من أصول العقائد وقواعد الشرائع وفلسفة الآداب والأخلاق وسنن الاجتماع وطبائع الملل والأقوام ، وماساقه من آيات الله فى الكائنات من الكواكب والبحار والرياح والنبات والحيوان والجماد وفوق ذلك كله ما فيه من العلم الإلهى، والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال وكل ذلك يؤيد بعضه بعضا لاشبهة فيه ولا اختلاف بين معانيه . فأنى لبشر أن يكون له مثل ذلك مهما أوتى من

العلم فضلا عن أن يكون أميا . وذلك يقطع بأنه لا يمكن أن يكون هذا القرآن إلا من عند الذى أحاط بكل شيء علما .

ثم ذكرت الآيات لونا من المرض الاجتماعى ، والوسيلة إلى البرء منه، وذلك شأن القرآن فى الطب لأدواء المجتمعات وشفائها بما يقدم من علاج نافع وتوجيه حكيم فقال تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) وكان هذا من شأن المنافقين وضعفاء المؤمنين يذيعون وينشرون مايصل إلى أسماعهم من شئون الأمن والخوف فى الحرب أو فى سياسة الدولة دون أن يتحروا حقيقة ماينشرون،أويفطنوا لما يسببه نشره من بلاءعلى المسلمين فنعى عليهم القرآن ذلك وأرشدهم إلى المسلك الذى يجب اتباعه فقال (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولو أرجعوا ذلك الأمر الذى أذاعوه إلى الرسول وهو الإمام الأعظم والقائد العام فى الحرب ، وإلى أولى الأمر من أهل الحل والعقد ورجال الشورى،لعلم حقيقته منهم الذين يقدرون على استنباطه واستخراج حقيقته بخبراتهم ودقة نظرهم .

وبذلك يقرر القرآن أن ليس للعامة أن يخوضوا فى أمر الأمن أو الخوف ويذيعوا ما يصل إلى علمهم من هذه الأخبار فإن فى إذاعته إضرارا بالأمة وإفادة لأعدائها ، ومن الواجب عليهم أن يتركوا هذه الأمور ويفوضوها إلى من وثقت بهم الأمة من أهل الحل والعقد وهم أولو الأمر فيها ، فهم أقدر على وزن الأمور وتقدير المصالح العامة (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بما هداكم إليه من طاعة الله والرسول ورد الأمور العامة إلى إلى أربابها (لا تبعتم الشيطان إلا قليلا) لضللتم سبيل الخير والفلاح لكم فى الدنيا والآخرة ، ولسلكتم سبيل الشر والباطل إلا قليلا ممن هداهم الله إلى الحق ورزقهم الثبات عليه .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـ طاعة الرسول طاعة لله لأنه يبلغ شرع الله إلى العباد .

٢ ـ الذين يظهرون الطاعة ويبيتون المعصية ليسوا من المؤمنين الصادقين ، والله مطلع على السرائر ويحاسب عليها .

٣ ـ من تدبر القرآن ظهرت له عظمته وأيقن أنه من عند الله وحده.

٤ ـ ليس للعامة أن يخوضوا فيما يتعلق بأمن الأمة وسياستها العليا فإن ذلك يفسد أمر الأمة ويفيد أعداءها .

٥ ـ إذاعة الأخبار قبل الوقوف على حقيقتها وعلى الآثار المترتبة على إذاعتها شأن المنافقين وضعفاء الإيمان .

٦ ـ يجب أن تفوض الأمة أمورها العامة إلى قادتها وأولى الأمر فيها وتلتزم توجيهاتهم فى هذه الأمور،ففى ذلك سلامة الدولة .

٧ ـ من لم يرد الأمر إلى أهله متبع سبيل الشيطان وهو سبيل الشر والفساد والضياع .

فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (٨٤) .

(حرض المؤمنين) رغبهم وشجعهم على القتال (بأس) قوة (تنكيلا) عذابا وعقوبة .

المعنى العام :

بعد ما بين الله تعالى حال المنافقين وضعفاء الإيمان الذين يثبطون الهمم، ويقولون طاعة ثم يبيتون المعصية ، ويخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وبعد ما بين أن الرسول مكلف بالتبليغ وليس حفيظا عليهم يحصى أعمالهم ويعاقبهم عليها ، أمره بالثبات على الحق والجهاد فى سبيله ولو بقى فى ميدان القتال وحده فقال (فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) فلست مسئولا عن مخالفاتهم وقصور هممهم ، ولا يضرك إعراض الذين قالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ إن عليك إلا البلاغ (وحرض المؤمنين) ادعهم وحثهم على القتال (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) وعد من الله أن يحمى المؤمنين من بأس الكافرين ، وذلك متوقف على امتثال المؤمنين لتحريض الرسول لهم على القتال واتخاذ أسباب الدفاع مع الصبر والثبات؛ وخروجهم للقتال أفرادا وجماعات كما تقدم فى قوله تعالى: «فانفروا ثبات أو انفروا جميعا» فإن الله لا ينصر القاعدين أو المقصرين وإلا لنصر نبيه بدون قتال،ولما أمره بأن يقاتل فى سبيل الله ولو كان وحده ، وفى هذا المعنى قوله تعالى : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» . ثم ختم الآية بقوله : (والله أشد بأسا

وأشد تنكيلا) ليزيد فى اطمئنان المقاتلين فى سبيله فهو القادر على أن يقهر أعداءهم ويعذبهم عذابا أليما .

ما يؤخـــذ من الآية :

١ — أمر الرسول - وكل داعية للحق - بأن يناضل فى سبيل دعوته ولو بقى وحده وتفرق عنه الأنصار والمؤيدون .

٢ — وعد من الله بهزيمة الكافرين ونصر المؤمنين الذين يأخذون حذرهم وينفرون لقتال أعدائهم امتثالا لأمر ربهم .

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)

(كفل) نصيب (مقيتا) مقتدرا أو شهيدا حفيظا (تحية) أصل التحية الدعاء بالحياة كقولهم حياك الله ثم استعملها الشرع فى إلقاء السلام وهو تحية المسلمين (حسيبا) محاسبا .

المعنى العام :

تقدم فى الآية السابقة أمر الرسول بتحريض المؤمنين على القتال وفى هذا التحريض خيرهم فى الدنيا والآخرة، فالرسول بذلك يسعى لتوصيل النفع والخير إلى المسلمين وهذا هو فعل الشفيع الذى يتوسط لجلب منفعة أو دفع مضرة . والرسول بهذه الشفاعة الحسنة له نصيب من الأجر والمثوبة كما أن الذين يثبطون عن الجهاد لهم نصيب من وزر شفاعتهم السيئة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) ويدخل فى عموم الآية كل شفاعة حسنة يبتغى بها وجه الله لنصرة حق ودفع ظلم وجلب خير لمستحق ، وكل شفاعة سيئة لإسقاط حــد أو هضم حق أو اعطائه لغير مستحق ونحو ذلك ، والضابط العام : أن الشفاعة الحسنة هى ماكانت فيما استحسنه الشرع ، والسيئة فيما كرهه أو حرمه (وكان الله على كل شىء مقيتا) مقتدرا أوشهيدا

حفيظا لا يخفى عليه أمر من أحسن أو أساء فى شفاعته فيعطى الجزاء من جنس العمل .

وبعد أن رغب الله المؤمنين فى جزاء الشفاعة الحسنة وهى من أسباب التواصل بين الناس علمهم أدب التحية فيما بينهم لبزيد من ترابطهم وتوادهم فقال (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فبين لهم أن إجابة التحية تكون بأحسن منها وذلك هو المطلوب أولا ، فإن لم يبلغ المرء هذا القدر فأدنى درجات الإجابة أن تكون ردا للتحية بمثلها. والتحية بالأحسن تتحقق بالإجابة المهذبة وبشاشة الوجه والإقبال الذى يشعر بالعناية وغير ذلك من مظاهر التكريم المتعارف عليها ، وقد يلقى امرؤ السلام بقوله السلام عليكم فيجيبه الراد بقوله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته لكن بطريقة تشعر بالاستخفاف والاستهانة فلا يكون بذلك رادا بأحسن منها ولا بمثلها وهذه أمور لا تخفى على فطنةذوى الأدب العالى والخلق الكريم. (إن الله كان على كل شىء حسيبا) فهو يحاسبكم على مايصدر منكم من مراعاة هذه الصلة والقصور فيها . ثم أعقب ذلك سبحانه بما يدفع المؤمنين إلى طاعته فى كل ما أمر به من شئون القتال والسلم فقال (الله لا إله إلاهو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) فذكرهم بالتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء وهما الركنان الاساسيان فى الدين وهما العون الأكبر والباعث الاقوى على امتثال امر الله خاصة فيما يتعلق بشئون القتال والتضحية بالنفس والمال فعند الله الجزاءالأوفى (ومن أصدق من الله حديثا) لأحد أصدق من الله فكلامه عن علم محيط بسائر الكائنات فلا يحتمل غير الصدق والمطابقة للواقع كما قال تعالى : (لا يضل ربى ولا ينسى) .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — حث المؤمنين على التوسط لنفع بعضهم بعضا لإقامة الحق ودفع الظلم ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

٢ — التحذير من الشفاعة السيئة التى تضيع بها الحقوق وتغتصب من أربابها .

٣ — إفشاء السلام ولقاء المؤمنين بوجه طلق يقوى عرى المودة والمحبة ويوثق الروابط والصلات وهو مايدعو إليه الإسلام .

٤ — الإيمان بالله واليوم الآخر مبعث عزة المؤمن واعتصامه بالله وحده ومسارعته إلى البذل والتضحية إيثارا لما عند الله من جزاء .

فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ
أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّواْ
لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ
وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ
يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ
فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ
إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ
وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (٩١)

(أركسهم) ردهم فى الكفر (سبيلا) طريقاً (أولياء) الولى: النصير والمعين (ميثاق) عهد (حصرت صدورهم) ضاقت وانقبضت (اعتزلوكم) لم يتعرضوا لكم (السلم) الانقياد والمسالمة (ثقفتموهم) وجدتموهم وتمكنتم منهم (سلطاناً مبيناً) حجة واضحة أو تسلطاً ظاهراً.

المعنى العام:

هذه الآيات مرتبطة بموضوع القتال والمنافقين ارتباطاً تاماً فالكلام

فيها عن قوم كانوا بمكة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يهاجروا معه مع إعلانهم الإيمان فى الظاهر وقد بدا منهم ما يدل على مظاهرتهم للمشركين سراً . وقد اختلف المسلمون فيهم فقالت فئة . نعاملهم معاملة المشركين ، ففى تصرفاتهم ومظاهرتهم لأعداء المسلمين ما يدل على كفرهم ، وقالت فئة أخرى : كيف نعاملهم كالمشركين وقد أعلنوا الإيمان وتكلموا بكلمة الإسلام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ساكتاً ليس له انحياز إلى فئة كأنه كان يتأمل ويفكر أو ينتظر إرشاد الله ، وقد جاء إرشاده تعالى بما يفيد الحكم بكفرهم فقال (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا) أى كيف تفترقون فى شأنهم وقد ردهم الله إلى الكفر بما اقترفوا من أعمال الشرك ومناصرة أعدائكم عليكم (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) استفهام انكارى . أى ليس فى استطاعتكم أن تغيروا سنن الله فى نفوس الناس ، وقد أضل هؤلاء باختيارهم سبيل المشركين (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ومن تقضى سنته فى خلقه أن يكون ضالا عن الحق فلن تجد له طريقاً يوصله إليه . ثم أظهرت الآيات ما يعلم الله من حقيقة نواياهم وخبايا نفوسهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) فهم يتمنون لكم الكفر والضلال حتى تكونوا سواء فى ذلك .

وحيث إنهم انقلبوا إلى الكفر وزادوا إمعاناً فيه بأن رغبوا فى إضلالكم وكفركم (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) فلا تطلبوا منهم نصراء لكم حتى يظهر إيمانهم ظهوراً بينا ويتأكد بهجرتهم فى سبيل الله لا لغرض مادى أو دنيوى ، ولما كانت الهجرة يومئذ شعار الإيمان ودليله فقد جعلت الآية هجرتهم دليلا على صدق إيمانهم (فإن تولوا) وأعرضوا عن الإيمان والهجرة (فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) فقد وجب عليكم قتالهم وتعقبهم ومجانبتهم

فلا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة لكفرهم وتصديهم لقتال المسلمين .
أما الذين لا يسعون لقتالكم فليس لكم أن تبدأوهم بالقتال ، وهو مايفيده الاستثناء فى قوله تعالى : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) فريقان لا ينطبق عليهما الحكم السابق وهو الأمر بأخذهم وقتلهم أنى وجدوا وهما : الذين انحازوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد فأصبحوا بذلك بعيدين عن ايذاء المسلمين والكيد لهم ، والذين جاءوا إلى المسلمين ولكنهم آثروا موقف الحياد بسبب حرج نفوسهم وضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين وهم لا يريدون قتالهم ، أو يقاتلوا قومهم وفيهم أقرباؤهم وأزواجهم وأولادهم ومصالحهم فهؤلاء وأولئك يتسع لهم صدر الإسلام ويرضى منهم بعدم الاعتداء وإن لم يكونوا فى صفوف المدافعين عنه وذلك أبلغ دليل على أنه ينشد الأمن ،فمتى وجده اكتفى به دون تعنت ، وأنه لم يتخذ السيف وسيلة لنشر دعوته كما يزعم خصومه وأعداؤه .

ولما كان هذا الحكم فيه كثير من التسامح ، وفيه إلزام المجتمع بأن يقبل قوماً يشاركونه الموطن ولا يتحملون أعباء الدفاع عنه ومجاهدة أعدائه — عقب الله بما يخفف وقع هذا الحكم على المؤمنين ويرشد إلى حكمته التشريعية فقال : (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) فمن رحمته أن صرفهم عن قتالكم ، وهذا وحده كسب لكم بتقليل خصومكم ، وقد تصبح معايشتهم لكم طريقاً لاندماجهم فيكم عندما يرون سماحة الإسلام ومعاملة أهله (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) فإن كفوا عن قتالكم وأعطوكم زمام أمرهم فى المسالمة بحيث وثقتم بهم فما جعل الله لكم طريقاً تسلكونها إلى الاعتداء عليهم ، فإن أصل شرعه الذى هداكم إليه أن لا تقاتلوا إلا الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إلا على من اعتدى عليكم .

ثم تحدثت الآيات عن فريق آخر من المنافقين (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) فهؤلاء لاتهمهم إلا سلامة أبدانهم والأمن على أرواحهم وأموالهم فيظهرون للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم ، ويحالفون الكفار فى الباطن فيعبدون معهم مايعبدون ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم فى الحقيقة مع الكافرين لقوله تعالى(كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) فينقلبون على أعقابهم ويقعون فى الشرك المرة بعد المرة ، فهم قد مردوا على النفاق . وقد بين الله حكمهم بقوله : (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم)فإن لم يعتزلوا المسلمين ويلقوا إليهم السلم فيكونوا خاضعين لهم مسالمين غير مقاتلين، كان على المسلمين أن يأخذوهم أخذ الأعداء ويقتلوهم حيث وجدوهم كما يقتل الأعداء (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً) أى جعلنا لكم حجة واضحة وبرهاناً ظاهراً فى قتالهم ، وهذا يقابل قوله تعالى فيمن اعتزلوا وألقوا السلم « فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » وكل من العبارتين تؤيد الأخرى فى بيان كون القتال لم يشرع فى الإســـلام إلا للضرورة ، وأن هذه الضرورة تقدر بقدرها فى كل حال .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — ذكرت الآيات أربع فرق : —

(ا) الفريق الأول : المنافقون الذين أظهروا الإيمان وهم فى الحقيقة على الشرك ويتمنون أن يكفر المسلمون كما كفروا . وحكم هؤلاء أنهم لا تقبل منهم دعوى الإيمان ويعاملون معاملة المشركين إلا إذا ظهر صدق إيمانهم بهجرتهم فى سبيل الله (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً) .

(ب) الفريق الثانى : الذين يلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد فيأمن المسلمون بذلك شرهم .

(ج) الفريق الثالث : للذين يأتون إلى المسلمين ولكنهم يختارون موقف الحياد فلا يقاتلون المسلمين ولا يقاتلون معهم .

وحكم هذين الفريقين عدم جواز قتالهم والتعرض لهم ما داموا مسالمين لم يبدأوا المسلمين بعدوان .

(د) الفريق الرابع : المنافقون الذين يريدون أن يجمعوا بين إرضاء المسلمين ليأمنوهم وإرضاء الكافرين ليأمنوهم فيظهروا لكل حالة مايناسبها وحكم هؤلاء متوقف على مسلكهم فإن اعتدوا اعتدى عليهم وإن قاتلوا أخذوا وقتلوا أينما وجدوا . وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً .

٢ — لا يبدأ الإسلام عدواناً ، ولا ينقض عهداً ، ولا يقاتل محايداً . وهو مع ذلك يرد العدوان بمثله ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣)

(فتحرير رقبة) عتق عبد أو أمة (أن يصدقوا) أن يعفوا عن الدية

المعنى العام :

بعد أن بين الله فئات المنافقين ومن يستوجب القتل منهم بين فى هذه الآيات حكم القتل خطأ وعمدا للمؤمنين والمعاهدين والذميين فقال : (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) ليس من شأن المؤمن أن يقتل أحدا من المؤمنين بغير حق ، ولا يقع ذلك منه فى أى حال من الأحوال إلا حالة الخطأ وهو ما كان عن غير قصد (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) من وقع منه قتل مؤمن خطأ فعليه كفارة وهى عتق عبد مؤمن أو أمة مؤمنة لأنه لما أعدم نفسا مؤمنة كان كفارته أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق إحياء معنوى لها (ودية مسلمة إلى أهله) وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول وقد بينتها السنة بمائة من الإبل أو ألف دينار (إلا أن يصدقوا) إلا أن يعفو أهل القتيل عن الدية فتسقط بعفوهم وقد عبرت الآية عن العفو

بالصدقة ترغيباً لهم فيه (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) فإن كان المقتول من قوم أعداء لكم وهو مؤمن فالواجب على قاتله عتق رقبة مؤمنه ولا تجب الدية لأن قوم القتيل أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من مال المسلمين شيئاً (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) وإن كان المقتول من قوم بينكم وبينهم عهد أو ذمة فالواجب فى قتله خطأ كالواجب فى قتل المؤمن: الدية، والكفارة (فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) ومن ذلك تتجلى عظمة الإسلام وإنصافه وحفظه للعهود حيث أوجب فى دم المعاهد إذا قتل خطأ مثل ما أوجبه فى دم المؤمن سواء بسواء . وأى عدل وإنصاف ووفاء أعلى من هذا ؟ (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) فمن لم يجد رقبة يعتقها إما لعجزه عن ثمنها أو لعدم وجود رقيق فعليه صيام شهرين متتابعين لا يفصل بين يومين منهما إفطار إلا لمرض أو سفر ، فإن أفطر يوماً بغير عذر استأنف الصيام من أوله . والأشهر التى تذكر فى العبادات والتى هى مواقيت لها هى الأشهر القمرية المعروفه فى السنة الهجرية والتى أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ففيها الأشهر الحرم ومواقيت الصيام والحج . وقد غفل كثير من المسلمين عنها وتهاونوا فى معرفتها ، واتخذوا لمواقيتهم شهوراً ليس لها ارتباط بهم ولا بعباداتهم . وذلك من ضعف الشخصية الذى أصاب المسلمين فى عصورهم المتأخرة .

(توبة من الله) ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم (وكان الله عليما حكيما) عليما بأحوال النفوس وما يطهرها حكيما فيما شرعه لكم من الأحكام والآداب التى فيها سعادتكم فى الدنيا والآخرة . (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما) ومن يرتكب جريمة قتل مؤمن عمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها أبداً أو ماكثاً مكثاً طويلا وغضب الله عليه وانتقم منه وأبعده عن رحمته وهيأ له عذاباً عظيما . وفى هذه الآية من التهديد والوعيد أمر عظيم وخطب جسيم ، وذلك لفظاعة

الجرم فى قتل النفس المؤمنه فى الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم» . وعن ابن عباس : أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا : لا توبة له . فليعتبر بذلك أولئك الذين يجترئون على إراقة دماء إخوانهم المسلمين وليحذروا وعيد الله وعذابه العظيم ولا تكن الدنيا بفتنتها وجاهها داعية لهم إلى القتل بغير حق فإنها لا تسـاوى عند الله جناح بعوضة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — دم المسلم على المسلم حرام لا يحل إلا بحق وهو ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

٢ — من قتل مؤمناً خطأ فعليه الدية والكفارة . ومن قتل معاهداً أو ذمياً خطأ فعليه الدية والكفارة كذلك . ومن قتل مؤمناً من قوم هم أهل حرب فعليه الكفارة فقط ولا دية عليه .

٣ — من قتل مؤمنا عمدا فجزاؤه فى الدنيا القصاص لقوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا اكتب عليكم القصاص فى القتلى (١). . » أما فى الآخرة «فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٨ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) .

(ضربتم فى سبيل الله) سافرتم لجهاد أعدائكم (فتبينوا) تثبتوا واطلبوا بيان الأمر وحقيقته .

المعنى العام :

بين الله حكم القتل خطأ والقتل عمدا، وأن الذى يتصور صدوره من المؤمن إنما هو القتل خطأ . وفى هذه الآية حذر المؤمنين مما يؤدى إليه من قلة المبالاة فى الأمور والتثبت فيها فقال (يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) أى إذا خرجتم للجهاد فى سبيل الله فاطلبوا بيان الأمر فى كل ما تأتون وما تذرون ولا تتعجلوا من غير روية وتدبر (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الاسلام أو ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد لست مؤمنا وإنك قلت أو فعلت ذلك رغبة فى حقن دمك وحماية مالك (تبتغون عرض الحياة الدنيا) فتقتلوه ابتغاء عرض الدنيا الزائل وطلبا لمتاعها (فعند الله مغانم كثيرة) من رزقه وفواضل نعمه فيجب أن تتعلق همتكم بما عند الله ولا تدفعكم الرغبة فى الغنيمة إلى قتل امرىء يظهر الاسلام وينطق بكلمته (كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم) فقد كان حالكم فى بدء إسلامكم مثل حال الذى ألقى إليكم السلام لا يظهر منكم للناس ما تبطنون ولم يكلفكم أحد دليلا على صحة ما أظهرتم من الاسلام ، فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر باستقصاء سرائركم (فتبينوا) فإذا كان الأمر

كذلك فتبينوا حقيقة الأمر وقيسوا حاله على حالكم وافعلوا به ما فعل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على توافق الظاهر والباطن (إن الله كان بما تعملون) من الأعمال الظاهرة والخفية (خبيرا) فيجازيكم عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر فلا تتهاونوا في القتـــل ولا تتسرعوا فيه .

روى أن هذه الآية نزلت في شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك (١) وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه أميرها غالب بن فضالة الليثي ، فهربوا وبقي مرداس لثقته بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله ،السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد(٢) وجدا شديدا وقال : قتلتموه إرادة ما معه فقال أسامة : إنه قال بلسانه دون قلبه ، وفي رواية : إنما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام : هلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال : يارسول الله استغفرلي فقال : كيف بلا إله إلا الله . قال أسامة : فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ثم استغفرلي وقال أعتق رقبة .

ما يؤخـــذ من الآية :

١ — وجوب التثبت حتى لا نصيب أخا بجهالة .

٢ — من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله عصم دمه وماله ، ولا يتهم في صدقه وإخلاصه إلا إذا ظهر منه ما يكذب ظاهر حاله .

٣ — لا يجوز الاجتراء على تكفير مسلم وادعاء فساد باطنه دون دليل ظاهر ، فإن الله يتولى السرائر .

(١) اسم مكان قرب المدينة
(٢) وجد : حزن .

لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٩٦) .

(أولى الضرر) أصحاب الأعذار المانعة من الجهاد .

المعنى العام :

مضت سنة القرآن فى مزج آيات الأحكام العملية بما يرغب فى الأعمال الصالحة وينشط عليها وينفر من القعود عنها والتكاسل والتواكل فيها، وعلى هذه السنة جاءت هاتان الآيتان بين آيات أحكام القتال ، فهما متصلتان بها أتم الاتصال .

قال تعالى : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا يكون القاعدون عن الجهاد من غير عذر مانع كالمرض والعمى والعرج والزمانة — مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم فى سبيل الحق والخير وإعلاء كلمة الله (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) هذا بيان لما بين الفريقين من عدم الاستواء فذكر تعالى أنه فضل المجاهدين فى سبيله بأموالهم وأنفسهم على القاعدين غير المعذورين درجة لا يقدر قدرها ولا يعلم حقيقتها إلا هو . ولما كان ذلك يشعر بحرمان القاعدين من الأجر قال : (وكلا وعد الله الحسنى) أى كل واحد من القاعدين والمجاهدين وعد الله الجنة وفى هذا الوعد حفز لهمم القاعدين وتحريض لهم على القتال لنيل ما وعد الله به (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) تأكيد

لتفضيل المجاهدين على القاعدين، وبيان لمقدار هذا التفضيل وأنه أجر عظيم، وقد عبر بالأجر للإشعار بثبوت الفضل لهم ثبوت الأجر الواجب للعامل.

ثم بين هذا الأجر العظيم فقال :

(درجات منه ومغفرة ورحمة) فالدرجات هي ما ادخره الله للمجاهدين من المنازل الرفيعة التي لا يحيط بها عد ولا حصر ، وكون الدرجات منه وهو صاحب الفضل العظيم دليل على عظم أمرها وجلال قدرها .

والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هي المغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التي لا تكفرها سائر الحسنات التي يأتي بها القاعدون .

والرحمة هي ما يخصهم به الرحمن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه .

هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر، وأما أولو الضرر فلم تتعرض الآية لهم . وقد روى عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قيل : وهم بالمدينة يارسول الله ؟ قال : نعم . حبسهم العذر » وذلك يفيد مشاركة أصحاب الأعذار للمجاهدين ولكنه لا يقتضى المساواة بينهم . وقد جاء في القرآن ما يفيد نفي الحرج والمؤاخذة عنهم إذا صدقت نياتهم وأخلصوا الإيمان لله ورسوله . قال تعالى: « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم »(١) (وكان الله غفورا رحيما) تقرير لما وعد به من المغفرة والرحمة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — القاعدون عن الجهاد بغير عذر لا يستوون في المنزلة والأجر مع المجاهدين الذين يحمون الأمة وينصرون الدين .

(١) سورة التوبة آية رقم ٩١ ؛

٢ — المعذورون فى القعود عن الجهاد لم تتعرض لهم هذه الآيات وجاء فى سورة التوبة ما يفيد نفى الإثم عنهم ، وفى الحديث ما يفيد مثوبتهم تفضلا من الله وإن كانوا لا يبلغون درجات المجاهدين .

٣ — منح الله المجاهدين فضلا عظيما ودرجات رفيعة الشأن ومغفرة ورحمة ، أما القاعدون فلا يبلغون من ذلك شيئا .

٤ — بيان فضل المجاهدين فيه تحريض على القتال وحفز للهمم لنيل هذا الفضل العظيم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ
قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً
فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً (٩٧)
إِلاَّ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَفُوًّا غَفُوراً (٩٩) * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَماً
كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ
يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٠)

(مراغما) متحولا ومكانا للهجرة يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوف الذين كانوا يستضعفونه . من الرغم وهو الذل والهوان،أصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب (وسعة) متسعا فى البلاد وفى الرزق .

المعنى العام :

فى هذه الآيات بيان لحال القاعدين عن الهجرة بعد ماتقدم بيان حال القاعدين عن الجهاد ، وكانت بلاد العرب بعد هجرة الرسول وأصحابه إلى المدينة تنقسم إلى قسمين : دار هجرة المسلمين ومأمنهم ، ودار الشرك والحرب .

وكان غير المسلم فى دار الإسلام حرا فى دينه لايفتن عنه ، وحرا فى نفسه لا يمنع أن يسافر حيث شاء ، أما المسلم فى دار الشرك فكان مضطهدا فى دينه يفتن و يعذب ، ويمنع من الهجرة إن كان مستضعفا لا قوة له ولا

أولياء يحمونه . وكانت الهجرة لأجل هذا واجبة على كل من يسلم ليكون حرا فى دينه ، آمنا فى نفسه ، وليكون قوة للمسلمين فى مواجهة الكفار الذين يهاجمونهم المرة بعد المرة ، وليتلقى أحكام الدين عند نزولها .

وكان الذين أسلموا وبقوا بمكة فريقين : فريق آثر البقاء فى وطنه بين أهله لأنه لضعف إيمانه يؤثر مصلحة الدنيا التى هو فيها على الدين وهذا هو الفريق الظالم لنفسه الذى توعده الله فى هذه الآيات . وفريق ضعيف مستضعف لا يقدر على الهجرة ولا يدرى أى حيلة يعمل ، ولا أى طريق يسلك فهو لهذا فى رجاء عفو الله ومغفرته، وقد تحدثت الآيات عن الفريقين وحكم الله فيهما . قال تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة) تقبض أرواحهم عند الموت (ظالمى أنفسهم) بترك الهجرة واختيار البقاء فى دار الكفر (قالوا فيم كنتم) فى أى شىء كنتم من أمور دينكم . وفى هذا الاستفهام توبيخ لهم على الرضا بهذا البقاء الذليل (قالوا كنا مستضعفين فى الأرض) اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه بأن عجزهم عن القيام بأمور دينهم كان بسبب استضعاف الكفار لهم . فرد الملائكة عليهم هذا العذر (قالو ألم تكن أرض واسعة فتهاجروا فيها) وتحرروا انفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ولا هو من شأنه ، فقد كنتم قادرين على الهجرة إلى بلد تأمنون فيه وتقدرون على إظهار دينكم (فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) فهؤلاء جزاؤهم دخول جهنم وبئس المصير لمن يصير إليها لأن كل مافيها يسوء لا يسر منه شىء .

قال فى الكشاف[1] : وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب - والعوائق عن إقامة الدين

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٣ .

لاتنحصر - أوعلم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة .

(إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) بيان لحكم الفريق الثانى وهم المستضعفون الموصوفون بأنهم (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) فقد ضاقت بهم الحيل وعميت عليهم طرق الهجرة فهؤلاء استثناهم الله تعالى من الوعيد السابق وجعلهم فى رجاء عفوه ومغفرته (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا) وكان شأن الله تعالى العفو عن المخالفات التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ، ومغفرتها بسترها فى الآخرة وعدم فضيحة أصحابها .

وفى التعبير بكلمة « عسى » التى تفيد الرجاء دليل على أن ترك الهجرة أمر مضيق لاتوسعة فيه لدرجة أن من لايجد حيلة ولاسبيلا إليها من حقه فقط أن يقول : عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره ؟ !

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) ترغيب فى الهجرة ، وتبديد لمخاوف المترددين فيها ، وبيان لفضل الله على المهاجرين فى سبيله إذ يبدلهم من الخوف أمنا ومن الذل عزة ومن الفقر غنى وسعة فى الرزق فيرغمون بذلك أنوف أعدائهم الذين كانوا يستضعفونهم ، (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وعد من الله تعالى - ووعده لا يتخلف - لمن خرج من بيته قاصدا الهجرة فى سبيله أن يوفيه أجره ولو مات قبل أن يبلغ مقصده ودون أن يتحمل مشاق الهجرة ومتاعبها وقد أبهم الله هذا الأجر ، وجعله حقا واقعا عليه تبارك وتعالى للإيذان بعظم قدره ، وتأكيد ثبوته ووجوبه . (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا فى المغفرة فيغفر له مافرط منه من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج . رحيما به فيكمل له ثواب هجرته.

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بهذه الآيات إلى مسلمى مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه - وكان شيخا كبيرا - احملونى فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم[1] أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك ، أبايعك على مابايعك رسولك ، ثم مات حميدا ، فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا فنزلت (ومن يخرج من بيته مهاجرا . . . الآية) قال العلماء : كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة إلى الله ورسوله .

مايؤخذ من الآيات :

١ — يجب على المسلم أن يهاجر من البلد الذى يضطهد فيه فى دينه، ويحرم عليه البقاء فيه .

٢ — إذا عجز المسلم المضطهد عجزا تاما عن الهجرة فلا إثم عليه فى البقاء وهو فى رجاء عفو الله ومغفرته . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

٣ — من يهاجر فى سبيل الله يرزقه الله الأمن والسعة فى الرزق والقوة التى ترغم أنوف أعدائه وأعداء دينه .

٤ — من يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله فقد تكفل الله له بالأجر الذى لا يقدر قدره ، ولو مات بعد ماجاوز عتبة بابه .

---

(١) مكان بالقرب من مكة .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَـٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢)

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا (١٠٣).

(ضربتم فى الأرض) سافرتم فى البلاد (جناح) حرج أو إثم (يفتنكم) الفتنة الايذاء بالقتل وغيره (كتابا موقوتا) فرضا محدد الأوقات.

المعنى العام:

تقدم فى الآيات السابقة الحث على الجهاد والهجرة فى سبيل الله وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر فيها على إقامة دينه. والجهاد يستلزم السفر، وتعرض له أحوال من الخوف، فجاءت هذه الآيات تبين كيفية الصلاة فى السفر والخوف فقال تعالى:

(وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) أى إذا سافرتم فى البلاد فلا إثم عليكم ولا حرج

أن تقصروا من عدد ركعات الصلاة وهيئتها إن خفتم أن يهجم عليكم الكافرون فيصيبونكم بقتل أو أسر أو نحو ذلك (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) فهم لعداوتهم الظاهرة لا يكفون عن ايذائكم والتعرض لكم فاحذورهم .

والقصر المذكور فى الآية هنا ليس هو قصر الصلاة الرباعية فى السفر المبين بشروطه فى كتب الفقه فذلك مأخوذ من السنة المتواترة . وأما ما هنا فهو القصر فى صلاة الخوف ـ بذلك قال بعض الصحابة وغيرهم من السلف ـ وقد بين الله هذا القصر فى الآية الآتية بقوله (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) فأوضح كيفية صلاة الخوف التى تؤدى والعدو متربص بالمسلمين على النحو التالى : ـ

يقسم الامام المسلمين إلى طائفتين : طائفة تصلى خلفه ومعها سلاحها ، وطائفة تقف للحراسة فى مواجهة العدو . فإذا سجد بالطائفة الأولى فلتكن الثانية فى حراستهم من خلفهم ، فإذا أتمت الأولى الركعة انصرفت ووقفت تجاه العدو للحراسة ، ولتأت الطائفة الأخرى التى لم تصل فتصلى ركعة مع الإمام وليأخذوا حذرهم بأن يكونوا فى يقظة تامة واحتراس كامل وليحملوا أسلحتهم حتى لا يفاجئهم العدو بالاغارة عليهم ، وقد علل الله ذلك بقوله : (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) فهم يتمنون أن ينالوا منكم غرة فيحملون عليكم حملة واحدة . لذلك أوجب الله عليكم ان تأخذوا أسلحتكم وأن تكونوا على حذر دائم . ولم تبين الآية شيئا عن الركعة الباقية لكل من الطائفتين ، وقد جاء هذا البيان فى السنة فقد روى عن ابن عمر قال : «صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين

ركعة ، والطائفة الأخرى تواجه العدو ، ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدو ، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبى صلى الله عليه وسلم ركعة ثم سلم . ثم صلى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . والظاهر أنهما تأتيان بالركعتين على التعاقب لأجل الحراسة ، وبذلك يكتمل لكل طائفة ركعتان .

وبيان القرآن للصلاة فى حالة الخوف دليل قاطع على عظم مكانة الصلاة بين فرائض الاسلام وأنه لا يحل لمسلم أن يتركها فى أمن أو خوف ، وفى صحة أو مرض فإنها فريضة محكمة لا تسقط عن المسلم بأى حال من الأحوال . فليتق الله تاركو الصلاة ، وليحافظوا عليها كما أمر الله . (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) رخص لهم فى حال العذر من مطر أو مرض أن يضعوا أسلحتهم ، وأمرهم بالتيقظ والاحتياط بقوله (وخذوا حذركم) لئلا يهجم عليكم العدو بغتة (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) بأن يخذلهم وينصركم عليهم فلا تقصروا فى مباشرة أسباب النصر والقوة .

(فإذا قضيتم الصلاة) أى أديتم صلاة الخوف على الوجه(١) المبين لكم (فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) فداوموا على ذكر الله تعالى فى كل حال من أحوالكم حتى تزكو نفوسكم وتعلو هممكم وتقوى عزائمكم (فإذا اطمأننتم) وزال الخوف عنكم (فأقيموا الصلاة) أى أدوها مقومة تامة الأركان والحدود والآداب ، (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) إن الصلاة كانت فى حكم الله ومقتضى حكمته فى هداية عباده فرضا مؤكدا محدد الأوقات لا بد من أدائها فيها على قدر الإمكان .

---

(١) وردت روايات كثيرة فى كيفية صلاة الخوف يطول الحديث عنها . ومن أراد المزيد فلينظر تفسير المنار ج ٥ ص ٣٧٥ وما بعدها ، وتفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٦٥ وما بعدها .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـ الصلاة الرباعية فرضها فى السفر ركعتان .

٢ ـ الحث على أداء الصلاة فى وقتها ولو كان الحرب قائما والعدو متربصا.

٣ ـ الصلاة فى الخوف لها هيئة خاصة تختلف عن هيئتها عند الأمن والطمأنينة .

٤ ـ ليس للمسلم عذر فى ترك الصلاة ، وهى لا تسقط عنه بأى حال من الأحوال .

وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)

(ولا تهنوا) تضعفوا (ابتغاء القوم) طلبهم وقتالهم .

المعنى العام :

نهى الله المؤمنين عن أن يضعفوا فى طلب الأعداء ولقائهم بقوله : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) وفى ذلك معنى الأمر بالهجوم عليهم ، ثم زادهم تشجيعا بقوله (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) فليست آلام الحرب وويلاتها قاصرة عليكم وإنما يصيب أعداءكم منها مثل ما يصيبكم (وترجون من الله ما لا يرجون) وأنتم أحسن حالا منهم حيث تتعلق آمالكم بوعد الله لكم بالنصر على أعدائكم ومثوبته لكم فى الآخرة وليس لهم من ذلك نصيب، وفى ذلك ما يقوى عزائمكم ويحثكم على الصبر والثبات، (وكان الله عليما) بما يصلحكم (حكيما) فيما يدعوكم إليه فامتثلوا أمره تفوزوا بالخير فى الدنيا وحسن العاقبة فى الآخرة .

ما يؤخذ من الآية :

١ — النهى عن الضعف فى لقاء العدو ، والحث على طلبه ومباغتته فى الحرب .

٢ — آلام الحرب مشتركة تصيب المؤمن والكافر ، ولكن المؤمن فى موقف القوة بتأييد الله له ووعده بالنصر والمثوبة .

* * *

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ
ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ
وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ
يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ
نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣).

(خصيما) تخاصم وتناضل عنهم (يختانون) يخونون (جادلتم) المجادلة أشد المخاصمة (سوءا) عملا يسوء به غيره (خطيئة) ذنبا غير متعمد (يرم به) يقذف به (بهتانا) كذبا يبهت المكذوب عليه ويحيره.

المعنى العام :

لما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يأخذوا حذرهم من الأعداء ويستعدوا

لمجاهدتهم حفظاً للحق من الاعتداء عليه ، أمرهم بأن يقوموا من جهتهم بتحرى أسباب الحق والمحافظة عليه وعدم محاباة أحد فيه .

روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طعمة ابن أبيرق وكان رجلا من الأنصار، ثم أحد بنى ظَفَر ، سرق درعا لعمه[١] كان وديعة عنده ، ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودى إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم يهتف ، فلما رأى ذلك قومه[٢] بنو ظفر ، جاءوا إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم ، وكان نبى الله عليه الصلاة والسلام قد همّ بقبول عذره حتى أنزل الله فى شأنه (ولا تجادل . . . الآيات) وكان طعمة قذف بها بريئاً ، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه (ومن يشاقق الرسول ... الآية)[٣] .

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) أى أوحينا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله من الأحكام (فلا تكن للخائنين خصيما) فلا تكن مدافعاً عن الخائنين بل عليك أن تتحرى الحق ولا تغتر بما يزيفه الخائنون من حجج حتى لا يكن رأيك فى جانبهم بغير حق (واستغفر الله) مما هممت به من قبول شهادة بنى ظفر (إن الله كان غفوراً رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) لا تدافع عن هؤلاء الخونة ولا تساعدهم عند التخاصم (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما) المراد بعدم الحب : البغض والسخط ؛ أى إن الله يبغض من اعتاد الخيانة والوقوع فى الآثام وقد بين أحوال الخائنين بقوله : (يستخفون من الناس

(١) عم قتادة (٢) قوم طعمة (٣) « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) آية رقم ١١٥ من سورة النساء

ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول) أى إن شأن هؤلاء الخوانين انهم يستترون من الناس حياء منهم أو خوفا من ضررهم ، ولا يستحيون من الله المطلع عليهم حين يدبرون ليلا مالا يرضاه من رمى البرىء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور (وكان الله بما يعملون محيطاً) لا يعزب عنه مثقال ذرة فلا سبيل إلى نجاتهم من عقابه . ثم حذر كل من ساعد هؤلاء الخوانين ودافع عنهم بقوله : (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ، أم من يكون عليهم وكيلا) وفى ذلك توبيخ وتقريع لأولئك الذين أرادوا مساعدة بنى أبيرق على اليهودى ، وفيه تحذير لكل من يخاصم ويجادل فى غير الحق . فليسمع ذلك المحامون الذين يزيفون الدفاع ويفتعلون الادعاء حتى يغتصبوا الحقوق لموكليهم أو يضيعوها على أصحابها من خصومهم .

وفى الآية إيماء إلى أن حكم الحاكم فى الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن يأخذ به إذا علم أنه قد حكم له بغير حقه . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما اقطع له قطعة من النار » .

ثم رغب تعالى فى التوبة من الذنوب وفتح بابها فقال : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) أى ومن يعمل قبيحا يسوء به غيره أو يظلم نفسه بفعل معصية تختص به ثم يندم ويرجع إلى ربه يجد الله غفار الذنوب رحيما به (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه) فإن شر الآثام وأضرارها تقع على صاحبها بما تجره عليه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة (وكان الله عليما حكيما) عليما بمسلك كل فرد وما يبيته الخائنون ، حكيما فيما شرع وقضى .(ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به

بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) ومن يقترف ذنبا ثم يرمِ نفسه ويقذف به إنسانا بريئا — كما فعل طعمة وقومه — فقد حمل نفسه وزر البهتان والكذب على البرئ ، ووز الإثم الذى ارتكبه فضاعف بذلك عقوبتها وحملها مالا تطيق . (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) لولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة لهمت طائفة منهم أن يضلوك عن الحكم العادل ولكنهم قبل أن يطمعوا فى ذلك جاءك الحق ببيان أركان العدل وكشف زيف ادعائهم وشهادتهم (وما يضلون إلا أنفسهم) بانحرافهم عن الصراط السوى (وما يضرونك من شيء) وقد عصمك الله من الناس ومن اتباع الهوى فى الحكم بينهم (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) أنزل عليك القرآن وأعلمك فقه مقاصد الدين وأسراره (وعلمك مالم تكن تعلم) من الكتاب والشريعة ، أو ماتضمنته الآيات من العلم بحقيقة الواقعة التى تخاصم فيها بعض المسلمين مع اليهودى (وكان فضل الله عليك عظيما) إذ أرسلك للناس كافة ، وجعلك خاتم النبيين ، وأنزل عليك الكتاب والحكمة ، واختصك بنعم كثيرة ، فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له ، كما يجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا خير أمة أخرجت للناس وقدوة لغيرهم فى جميع الخيرات :

ما يؤخذ من الآيات :

١ — على الحاكم أن يبذل جهده لمعرفة الحق ولا يغتر بظواهر الأحوال

٢ — ليس للمسلم أن يدافع عن غير حق وإن كانت الخصومة مع غير المسلمين فالإسلام ينصف أعداءه كما ينصف أولياءه .

٣ — من يخشى الناس ولا يستحيى من الله خوان أثيم ، والله مطلع على سره محيط بعمله وسيحاسبه عليه .

٤ — تحذير شديد لمن يستخدمون قوة الحجة والمنطق فى اغتصاب الحقوق ، أو إضاعتها على أصحابها ، والله يفصل بينهم يوم القيامة .

٥ — من رمى بريئا بذنب لم يفعله فقد ظلم نفسه وحملها من الإثم ما يستوجب به أشد العقاب .

٦ — باب المغفرة مفتوح لكل راغب فى التوبة، نادم على الذنب، راجع إلى الله، ومن يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما .

٧ — من فضل الله على رسوله : إنزال الكتاب عليه بالحق ، وتوفيقه إلى فقه مقاصد الدين وأسراره ، وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وإرساله إلى الناس كافة ، وغير ذلك مما لا يحصى من نعم الله وآلائه ، وكان فضل الله عليك عظيما .

* * *

لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً (١١٦).

(النجوى) الإسرار بالحديث (ابتغاء مرضاة الله) طلبا لرضاه (يشاقق) المشاقة : المعاداة (نوله ما تولى) نخلى بينه وبين ما اختاره .

المعنى العام :

لا يزال الحديث فى الذين يختانون أنفسهم ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله . وهم طلحة بن أبيرق ومن أراد مساعدته من قومه . تبين الآيات أنه لاخير فى كثير من تناجى هؤلاء القوم وإسرارهم الحديث ولكن الخير فى نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس (لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أومعروف أو إصلاح بين الناس) وكانت النجوى مظنة الشر فى الأكثر لان العادة جرت بحب إظهار الخير والتحدث به فى الملأ ، وأن الشر والإثم هو الذى يذكر فى السر والنجوى ، ثم استثنى الله من النجوى التى لا خير فى أكثرها أمورا ثلاثة جعل التناجى فيها من الخير بشرط أن يكون ذلك إخلاصا لله ورغبة فى حبه ورضاه (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما) فالإخلاص فى العمل وصدق النية فيه يستوجب مثوبة الله وأجره العظيم .

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيراً) والمشاقة : المعاداة ، والمعنى : ومن يعاد الرسول بالخروج عما رسم الله لرسوله والمؤمنين ، واتخاذ

طريق لا يحقق الخير لعباده ، وذلك بعد ما بلغته دعوة الاسلام على وجهها الصحيح ، واتضح له الحق وظهر بدلائله البينة ثم انسلخ عنه وأعرض عناداً واستكباراً .

من يفعل ذلك يخذله الله فى الدنيا ويخلى بينه وبين ما اختاره ، وفى الآخرة يدخله نار جهنم وبئس المصير . (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) سبق شرح هذه الآية فى نفس السورة ، وقد أعادها الله ليؤكد لعباده أنه لا يغفر ألبتة لمن أشرك به سواه ، وأنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب لمن يشاء . ذلك أن الشرك منتهى فساد الأرواح وضلال العقول ، وهو منبت كل شر ومنبع كل إثم ، وأصل لكل فساد وضلال ، ولذلك قال فيه تعالى : (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) ومن يشرك مع الله غيره فى العبادة أو الدعاء والاستعانة فقد ضل عن القصد وبعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيداً فى سبيل الغواية والفساد .

مايؤخذ من الآيات :

١ — أحاديث السر التى تجرى بين الناس فى الخفاء غالباً ما تكون مليئة بالشر والإثم لا خير فيها .

٢ — من أحاديث السر ماهو ملىء بالخير مفيد للناس وذلك كالأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، فهذه الأمور قد يفسدها الإعلان بها وإذاعتها ، فيكون الإسرار حينئذ مطلوباً لتحقيق غاياتها الفاضلة .

٣ — الإخلاص لله فى العمل والبعد عن الرياء والسمعة يجعل المرء أهلا للجزاء الأوفى والثواب الجزيل .

٤ — من عرف دين الله وظهر له هداه ثم اختار سبيلا غيره معانداً أو مفتوناً فله الخزى فى الدنيا ، وعذاب النار فى الآخرة .

٥ — الشرك بالله أساس كل رذيلة ، لا يتقبل الله من صاحبه عملا ، ولا يورثه إلا ذلا وخسراناً مبينا .

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا
(١١٧) لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨)
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَأَمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ
خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا
غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا
(١٢١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢).

(مريداً) هو الذى بلغ الغاية فى الشر والفساد (نصيباً) حصة أو سهما (مفروضا) مقدرا مقطوعا (ولأمنينهم) أعدهم الأمانى الباطلة وآمرهم بالتسويف والتأخير (فليبتكن) يقطعن (غروراً) باطلا (محيصاً) مهربا ومخلصاً.

المعنى العـام :

بعد أن ذكر الله تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به وبين أن من يشرك مع الله غيره فقد ضل ضلالا لا مزيد عليه - بين فى هذه الآيات بعض أحوال المشركين فقال (إن يدعون من دونه إلا إناثا) كاللات والعزى ومناة وكانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث ، ولكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بنى فلان ، وكانوا يتوجهون لهذه الأصنام بدعائهم وعبادتهم وطلب النفع منهم وذلك أبلغ دليل على ضلالهم البعيد (وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) ومايعبدون بعبادتها إلا شيطانا مرد على الإغواء والإضلال ، فهو الذى أمرهم بعبادتها

وأغراهم بها فكانت طاعتهم له عبادة (لعنه الله) أبعده من رحمته وفضله (وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) المراد بالنصيب هنا الطائفة الذين يضلهم ويغويهم (ولأضلنهم ولأمنينهم) لأضلنهم عن الحق ولأشغلنهم بالأماني الكاذبة (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) أي يقطعن آذانها تقربا لأصنامهم كما كانوا يفعلون فى الجاهلية (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) تغيير خلق الله وسوء التصرف فيه عام يشمل سائر أنواع التشويه والتمثيل بالناس الذى حرمه الشرع ومنه التغيير بالوشم وما أشبهه من تركيب أهداب العيون ورسم الحواجب بعد حلقها وإزالة أثرها الطبيعى الذى خلقه الله ونحو ذلك من مبتكرات الشيطان وأوليائه (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) ومن يركن إلى الشيطان فيؤثر طاعته على طاعة الله فقد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وكيف يرضى عاقل لنفسه أن يكون حليف من أبعده الله عن رحمته ، وجعله مصدر الشر والغواية ، وداعية الضلال والفساد ؟ (يعدهم ويمنيهم) يعدهم وعوداً كاذبة ويوسوس لهم بالأماني الخادعة (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) باطلا لا حقيقة له ، ويدخل فى وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس وهم قرناء السوء الذين يزينون للناس الضلال والمعاصى ويعدونهم بالمال والجاه ، ويمدونهم فى الطغيان . (أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) أولئك الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله وخضعوا لوسوسته وإغرائه مأواهم جهنم لا يجدون منها مهرباً ولا مفراً يفرون إليه . (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) هؤلاء عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم من سبيل - ذكرهم من مقابلة أولئك الذين يتولون الشيطان ويتبعون إغراءه (وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا) لا أحد أصدق من الله فى قوله ووعده فوعده حق لا يتخلف أما الشيطان فوعده باطل وكذب ، وفى ذلك أقوى

داعية وأعظم ترغيب للعباد فى تحصيل هذا الوعد الكريم بالإيمان الصادق، والعمل الصالح الذى هو ثمرة الإيمان وفائدته .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — أولياء الشيطان فى ضلال وخسران مبين لا ينالون خيراً ولا يهتدون سبيلا .

٢ — أولياء الله الذين آمنوا به لا يشركون به شيئاً وعملوا الصالحات لهم عند الله نعيم دائم وعز مقيم .

* * *

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦).

(أمانى) جمع أمنية : وهى مايوده الإنسان ويشتهيه (نقيرا) النقرة فى ظهر النواة . ويضرب به المثل فى القلة (أسلم وجهه) أخلص (حنيفا) مائلا عن الزيغ والضلال .

المعنى العام :

تقدم فى الآيات السابقة وصف الذين استحوذ عليهم الشيطان وأنه يعدهم الوعود الكاذبة ويمنيهم الأمانى الخادعة ـ وفى هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى أن أمر الآخرة ليس بالأمانى وإنما هو بالعمل والإيمان فقال : (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به)

قيل فى سبب نزول هذه الآيات أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله . فأنزل الله « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ـ إلى قوله ـ ومن أحسن دينا » الآية . أى ليس شرف الدين ولا فضله ولا نجاة أهله بما يتمناه أهل كل دين لأنفسهم ، إنما العبرة بالإيمان والعمل . فمن

يعمل عملا سيئاً يلق جزاءه عاجلا أو آجلا (ولا يجدله من دون الله وليا) يتولى أمره (ولا نصيرا) ينصره وينقذه مما يحل به . فليس ينفع الإنسان أن يكون منتسبا إلى الإسلام معدودا من بين المسلمين دون أن يكون ذا عمل صالح وإيمان صادق ، فعلى الصادق فى دينه المخلص لربه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ، من كان دينه أكمل تكون الحجة عليه فى التقصير أقوى . (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) أى من يعمل الأعمال الطيبة الصالحة وهو مطمئن القلب بالايمان فأولئك يدخلون الجنة بزكاة أرواحهم وحسن أعمالهم يستوى فى ذلك الذكر والأنثى فكل منهما أهل للمسئولية والتكليف ، ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئا ما ولو كان بقدر النقرة التى فى ظهر النواة .

ولما بين تعالى أن أمر النجاة والسعادة منوط بالعمل والإيمان ـ أتبع ذلك ببيان درجة الكمال فى ذلك فقال : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى لا أحد أحسن دينا ممن أخلص لله وحده ، وهو محسن فى عمله، متخلق بأخلاق الله الذى أحسن كل شىء خلقه، فالإحسان درجة الكمال ينشدها المؤمنون الصادقون (واتبع ملة إبراهيم حنيفا) أى واتبع فى دينه ملة إبراهيم الموافقة لدين الإسلام حال كونه حنيفا مائلا عن الشرك والوثنية كما أخبر عنه القرآن فى قوله تعالى : «وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون[1] » أى جعل البراءة من الشرك ونزغاته وتقاليده ، والاعتصام بالتوحيد الخالص كلمة باقية فى عقبه يدعو إليها النبيون والمرسلون من بعده (واتخذ الله إبراهيم خليلا) اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات الخليل

(١) سورة الزخرف . الآيات من ٢٦ ـ ٢٨

عند خليله ، ويطلق الخليل على المحب إذا كانت محبته خالصة ، والله يحب الأصفياء من عباده ويحبونه ، وقد كان إبراهيم كامل الحب لله ولذلك عادى أباه وقومه وجميع الناس فى حبه تعالى والإخلاص له ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته . (ولله مافى السموات ومافى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا) فكل شىء مملوك له ومن خلقه ، فطاعته واجبة على من فى السموات والأرض ، وهو المحيط بكل شىء إحاطة قدرة وتصرف وعلم وتدبير ، فلا حكم ولا تصرف لأحد سواه .

مايؤخذ من الآيات :

١ — ليس الانتساب إلى الاسلام مستوجبا للفضل ، إنما الفضل بالإيمان الصادق والعمل الصالح .

٢ — إن الله لايحابى مسلما ، ولا يظلم يهوديا أونصرانياً . (من يعمل سوءاً يجزبه) .

٣ — الإيمان والعمل الصالح ، والتطلع إلى الكمال فيهما دعائم النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة ،ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهومحسن»

٤ — دين إبراهيم عليه السلام موافق لدين الإسلام فى الدعوة إلى توحيد الله والإخلاص له ، ومحاربة جميع مظاهر الشرك والوثنية .

٥ — السموات والأرض ومابينهما ملك لله تعالى ، وقدرته قاهرة ، وحكمه نافذ ، وعلمه بكل شىء محيط ، فيجب إفراده بالعبادة والطاعة له والتوجه إليه وحده .

٦ — بيان قدرة الله على انجاز وعده، وإنزال وعيده . فمن أقدر ممن له مافى السموات والأرض ، خلقا وملكا ؟

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ
أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ
بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ
ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن
يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن
تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن
تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا
حَكِيمًا (١٣٠) .

(يفتيكم) يبين لكم ما خفى عليكم (ما كتب لهن) ما فرض لهن من الميراث (خافت) توقعت ما تكره (نشوزاً) ترفعا وتكبرا (إعراضاً) ميلا وانحرافاً (الشح) أشد البخل (المعلقة) التى ليست ذات زوج ولا مطلقة .

المعنى العام :

كان الكلام من أول السورة فى الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة ، ومن قوله : واعبدوا الله إلى هنا فى أحكام عامة فى أسس الدين وأصوله وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال ، ولما كان من المتوقع

بعد ممارسة العمل بأحكام النساء واليتامى التى تقدمت أن يقع الاشتباه فى بعض الأمور هل تحل أو لا تحل ؟ وتقع الحاجة تبعاً لذلك إلى زيادة البيان فى تلك الأحكام - فلذلك جاءت هذه الآيات توضح ما تشتد الحاجة إليه مما يكون موضع السؤال والاستفتاء ، قال تعالى : (ويستفتونك فى النساء) أى يطلبون منك أيها الرسول الفتيا فى شأنهن وبيان المشكل والغامض من أحكامهن ، من جهة حقوقهن المالية والزوجية ، والعدل فى المعاملة حين العشرة ، وحين النشوز والفرقة (قل الله يفتيكم فيهن) بما ينزله من الآيات فى أحكامهن ، (وما يتلى عليكم فى الكتاب) ويفتيكم فى شأنهن بما يتلى عليكم فى الكتاب مما نزل من الأحكام (فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) لا تعطونهن ما فرض لهن من الميراث وغيره (وترغبون أن تنكحوهن) وترغبون فى نكاحهن لجمالهن والتمتع بأموالهن من غير إكمال الصداق ، وفى ذلك قول عائشة رضى الله عنها : إنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق (والمستضعفين من الولدان) وما يتلى عليكم أيضاً فى شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تعطونهم حقهم فى الميراث وكانوا يورثون الرجال دون النساء والأطفال ، يذكرهم الله بهذه الآيات المفصلة — من أول السورة وما بعدها — ليتدبروا معانيها ويعملوا بها ولا يغفلوا عن شىء منها[1] (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) ويفتيكم أن تعنوا عناية خاصة بتحرى العدل فى معاملة اليتامى من النساء والولدان المستضعفين (وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) وما تفعلوه من خير لليتامى بترجيح منفعتهم ، والزيادة فى قسطهم ، فهو مما لا يعزب عن علمه ، ولا ينسى الإثابة عليه ، وفى هذا ترغيب فى الإحسان إلى اليتامى ، واستكمال مراتب معاملتهم وهى ثلاث :

(١) أنظر ص ٥٥ ، ٥٦ من هذا الكتاب .

الأولى : هضم شى من حقوقهم . وهى المحرمة السفلى .

الثانية : القيام لهم بالقسط والعدل بأن لا يظلموا من حقهم شيئاً وهى الواجبة الوسطى .

الثالثة : الزيادة فى رزقهم وإكرامهم بما ليس لهم من مال ، ومالا يجب لهم من عمل . وهى المندوبة الفضلى[١]

(وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا) شروع فى بيان مالم يبين فيما سلف من الأحكام ، فبعد أن تقدم الكلام عن نشوز المرأة وكيف يعالج[٢] ، جاءت هذه الآية بالحديث عن نشوز الرجل وإعراضه وكيف يعالج ذلك .

فإن توقعت امرأة من زوجها ترفعا واستكباراً عليها أوميلا وانحرافا فى معاشرتها وثبت لها ذلك مما ظهر من البوادر الدالة عليه (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً) يريد الله من الزوجين أن يعملا على حل مشاكلهما دون تدخل أحد فيها ، فإن ذلك أدعى للاصلاح بينهما ، وهذا الصلح قد يكون بتنازل المرأة عن بعض حقها فى الصداق أو النفقة أو القسم[٣] على أن تبقى فى عصمة الزوج ، وقد يكون بإعطاء الزوج إياها ما يرضيها من مال أو متاع فى مقابل تنازلها عن حقها أو بعضه فى المبيت عندها ، ولا جناح عليهما فى ذلك ولا فى غيره من صور الصلح التى تتم بينهما بالتراضى والقبول فإن المقصد هو معالجة أسباب النفرة والنشوز بما يكون أهدأ لنفسيهما وأنفع لحياتهما (والصلح خير) من الفرقة أو من

---

(١) تفسير المنار ص ٤٤٥ ج ٥ .

(٢) الآية ٣٤ انظر ص ٩٤ ، ٩٥ من هذا الكتاب .

(٣) نصيبها فى المبيت عندها

سوء العشرة أو من الخصومة والالتجاء إلى التقاضى مما يزيد فى أسباب الشقاق ويعمق هوة الخلاف .

ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من أن يكون الطلاق أمام القضاء ، وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره . فإن الآية عالجت نفور الرجل من زوجته بما لا يمس كرامتها ويسىء إلى سمعتها وبما يجعل أسباب الخلاف - وهى ذات حساسية غالبا - بعيدة عن ألسنة الثرثارين ، وتجريح الحاقدين (وأحضرت الأنفس الشح) تحذير من أن تقوم العقبات النفسية من الحرص والضن بالبذل والعطاء حائلا يمنع الوصول إلى الصلح ، فالواجب أن يتجرد كل من الزوجين من شح النفس وبخلها ويعمل كل منهما على ترك بعض حقه إرضاء لصاحبه وإبقاء عليه .

(وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) أى وإن تحسنوا العشرة وتتقوا النشوز والإعراض وإن دعت الدواعى إليهما فإن الله لا يخفى عليه شىء من دقائق ما تعملون ولا من قصدكم فيه فيجزيكم بما تستحقون من مثوبة وفضل ، وفى هذا ترغيب للأزواج فى أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسناً يخفف وقعه على الزوجات ، وتحذير لهم من مجاوزة حدود التقوى والخوف من الله ، أو الشح ببذل ما يصلح نفوسهن ويبعث فيها الرضا والقبول .

ولما أمر الله الأزواج بالإحسان والتقوى بين أن من الأمور مالا يدخل تحت طاقتهم ، وليسوا مكلفين بما يتجاوز قدرتهم ووسعهم فقال (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فليس فى مقدوركم أن تعدلوا عدلا تاما فى كل أمر من الأمور ولو بالغتم فى تحقيق ذلك . إذ هناك من الأمور مالا سيطرة لكم عليه وهو الميل القلبى والمحبة الروحية فالله تعالى

لا يكلفكم العدل فى ذلك ولكن يكلفكم ما تستطيعون (فلا تميلوا كل الميل) فإن الجور والميل الشديد فى مقدوركم مفاداته ولذلك ينهاكم عنه فلا تعرضوا عن الأخرى إعراضاً تاما (فتذورها كالمعلقة) التى لاهى متزوجة ولاهى مطلقة (وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما) وإن تصلحوا فى معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فى المعاملات التى تدخل فى قدرتكم واختياركم كالنفقة والقسم فإن الله يغفر لكم مالا تقدرون عليه كالحب ولوازمه من البشاشة وزيادة الإقبال ونحو ذلك . والله من شأنه المغفرة للعباد والرحمة بهم .

وقد يظن البعض أن هذه الآية ـ وقد قررت عدم استطاعة العدل بين الزوجات ـ تقوم دليلا على منع التعدد إذ أن إباحته مشروطة بالقدرة على العدل ، وهى غير مستطاعة بنص هذه الآية . فيكون التعدد غير مباح ـ وهذا ظن خاطىء سبق أن أوضحنا خطأه ورددنا عليه[1] .

(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) أى حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك الا التفرق بين الزوجين اللذين لم يرض أحدهما بالتنازل عن شىء من حقه ولم يحرص على استرضاء الآخر وصلحه ، يغن الله كلا منهما عن صاحبه من غناه وقدرته (وكان الله واسعاً حكيما) مقتدراً واسع الفضل حكيما فيما شرعه من الأحكام ، جاعلا إياها على وفق مصالح الناس .

ما يؤخذ من الآيات :ـ

١ ـ وجوب تحرى العدل والحرص عليه فى معاملة اليتامى من النساء والولدان ، مع الترغيب فى الإحسان إليهم وإكرامهم .

٢ ـ استكملت الآيات بيان أحوال الخلاف بين الزوجين وعلاج كل حالة بما يناسبها :ـ

---

(١) انظر ص٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ من هذا الكتاب .

(أ) فني نشوز الزوجة جاء قوله تعالى : (واللاتي تخافون نشوزهن[١] . . . الآية)

(ب) وفي نشوز الرجل . جاء قوله تعالى : (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا . . . . الآية) [٢]

(ج) وفي حالة الشقاق بينهما جاء قوله تعالى : (وإن خفتم شقاق بينهما . . . الآية)[٣] وقد أوضحنا علاج كل حالة في موضعها .

٣ — من الأمور ما يخرج عن طاقة الإنسان وقدرته كالعدل بين الزوجات في المحبة والميل القلبي ، فهو غير مكلف به . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها

٤ — يجب على الزوج أن يبذل جهده في إصلاح شئون الزوجية واتقاء أسباب الشقاق ، والإحسان في المعاشرة ، وأن يتجنب الظلم والإساءة .

٥ — إذا استنفدت وسائل الإصلاح ولم تجد نفعاً ، ووقع الفراق بين الزوجين فإن الله كفيل بإغناء كل منهما من سعته وفضله وكان الله واسعاً حكيما

---

(١) الآية ٣٤ من سورة النساء (٢) الآية ١٢٨ من سورة النساء
(٣) الآية ٣٥ من سورة النساء

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣)
مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (١٣٤)

(وصينا) أمرنا (الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأمم .

المعنى العام :

فى الآيات السابقة أمر الله عباده بالإصلاح والتقوى ووعد الزوجين - إذا اضطرا إلى التفرق - أن يغنى كلا منهما من فضله فهو واسع الفضل عظيم المنة ، وجاءت هذه الآيات عقب ذلك تقرر أن له سبحانه ملك السموات والأرض ومافيهما. فأى غنى أعظم من ذلك ؟ كما تذكر أن الأمر بالتقوى ليس خاصا بأمة محمد صلى الله عليه وسلم وإنما هى وصية قديمة سبق أن أوصى بها من قبلنا من الأمم السابقة ، ومايزال يوصى بها عباده لأن فى التقوى سعادتهم ونجاتهم فى العاقبة . وفى ذلك يقول تعالى : (ولله مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا ، وفى الآية تنبيه على كمال سعته وعظيم قدرته (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) أى أمرنا مَن قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأمم كما أمرناكم بتقوى الله وامتثال أمره ففى ذلك صلاح أموركم الدينية والدنيوية (وإن تكفروا فإن لله مافى السموات ومافى الأرض) لايضره كفركم كما

لاتنفعه طاعتكم ، ولا يعجزه عقابكم (وكان الله غنيا) عن الخلق وعبادتهم (حميداً) محموداً فى ذاته غير مفتقر إلى حمد الخلائق إياه . وفى الحديث القدسى المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل واحد منكم مانقص ذلك من ملكى شيئاً ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »

ثم أعاد ماسلف لزيادة التوكيد والتذكير فقال : (ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا) فهو المالك الخالق المتصرف فيهما كيف يشاء وكفى به قيما وكفيلا يوكل به أمر العباد فى أرزاقهم وأقواتهم وسائر شئونهم (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) إن يرد إفناءكم وإيجاد قوم آخرين يحلون محلكم فهو قادر علــى ذلك لأن كل مافى السموات والأرض فى قبضته وتحت سلطانه ، وفى هذه الآية تهديد شديد للذين يخالفون أمره ، وفى هذا المعنى قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »[1] . لكن الله لحكم يعلمها يمهل عباده ويؤخرهم إلى أجل مسمى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »[2] .

(وكان الله على ذلك قديراً) لايعجزه شىء لأن بيده ملكوت كل شىء (من كان يريد ثواب الدنيا) من كان يريد بسعيه وجهاده نعيم الدنيا وجاهها

(١) سورة محمد الآية ٣٨ . (٢) سورة فاطر الآية ٤٥ .

(فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فأولى له أن يريد ماعند الله من ثواب الدارين جميعاً ولايقصر همته على طلب الثواب الفانى دون الثواب الباقى ، وما عند الله خير وأبقى ، وفى ذلك مايشعر بوجوب أن تخلص النيات لله وحده وهو الكفيل بمثوبة العاملين المخلصين مما عنده من ثواب الدنيا والآخرة والله ذو الفضل العظيم (وكان الله سميعاً) لأقوال عباده فى مخاطباتهم ومناجاتهم (بصيراً) بجميع أمورهم فى سائر أحوالهم فعليهم أن يراقبوه فى الأقوال والأفعال ، وأن يخلصوا له القصد والنية ففى ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — لله ملك السموات والأرض ومافيهما ، وهو غنى عن العالمين .

٢ — وصية الله لعباده بالتقوى قديمة وصى بها الأمم السابقة ولايزال يوصى بها عباده تزكية لنفوسهم وتحقيقا لخيرهم .

٣ — من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها . والله لاتنفعه طاعة ولا تضره معصية . ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم

٤ — هلاك الأمم وفناؤها بالمعاصى ومخالفة أوامر الله . والله قادر على أن يستبدل بالعاصين قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

٥ — على المؤمن أن تتعلق نفسه بماعند الله من ثواب ولاتقتصر همته على طلب متاع الدنيا الفانى . ماعندكم ينفد وما عند الله باق .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ
أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) .

(تلووا) تحرفوا الشهادة وتغيروها ، واللى هو التحريف وتعمد الكذب
(تعرضوا) تكتموها .

المعنى العام :

بين الله فى الآية السابقة أن على المؤمن أن يخلص النية فى عمله لله تعالى حتى ينال ما عنده من ثواب الدنيا والآخرة ، ثم جاءت هذه الآيات تبين الأعمال التى من شأنها أن تكسب المرء خير الدارين وثوابها ، فجاء فى الآية الأولى الحث على إقامة العدل فى جميع الأمور وأداء الشهادة على وجهها الصحيح لحفظ الحقوق من الضياع ففى ذلك استقرار حياة الناس وأمنهم وسعادتهم فى الدنيا . وجاء فى الآية الثانية الأمر بالإيمان بالله ورسله والكتب التى أنزلها عليهم فذلك سبيل الوصول إلى ثواب الآخرة ونعيمها . قال تعالى (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) تقيمون العدل وتأتون به على أتم الوجوه وأكملها بأن تتحروا الدقة الكاملة فى ذلك (شهداء لله) تؤدون الشهادة لله بأن تتحروا فيها الحق الذى يرضاه ويأمر

به من غير محاباة لأحد (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم أو على الوالدين وذوى القربى فإن برهم لا يكون بمعاونتهم على ما ليس بحق ، وإنما البر والصلة فى الحق والمعروف (إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما) إن يكن المشهود عليه غنيا يُبتغى رضاه ويُتَّقى سخطه أو فقيرا يترحم عليه، فالله أولى بهما منكم فلستم أرحم بهما ولا أدرى بمصلحتهما من الله ربهما ، وقد جعل فى إقامة العدل والشهادة بالحق خيرا لهما وللناس جميعا (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) فلا تتبعوا الهوى وميل النفس عن الحق، فإن بعدكم عن ذلك أدعى أن تعدلوا بين الناس ولا تجوروا فى معاملاتكم وأحكامكم وشهادتكم (وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وإن تلووا ألسنتكم بالشهادة وتحرفوها ، أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فإن الله خبير بعملكم هذا فيجازيكم عليه (يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) أمر الله المؤمنين أن يجمعوا بين الايمان بالله ربهم ورسوله محمد بن عبد الله والقرآن الذى نزله عليه وبين الايمان بجنس الكتب التى أنزلها على رسله من قبل بعثة خاتم المرسلين بأن يعلموا أن الله قد بعث قبله رسلا، وأنزل عليهم كتبا،وأنه لم يترك عباده فى الماضى سدى ، محرومين من البينات والهدى،ولا يقتضى الايمان بهذه الكتب أن يعرفوا أعيانها ، ولا أن تكون موجودة ، ولا أن يكون الموجود منها صحيحا غير محرف ، ولا أن تكون شرائعها باقية ... إلى غير ذلك من التفاصيل . ولما أمر بالايمان بكل ماذكر توعد على الكفر بشيء منه فقال : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) فالايمان لا يتحقق له وجود إلا بهذه الأركان كلها : الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، ومن كفر بشيء من ذلك فقد ضل عن الحق الذى ينجى صاحبه فى الآخرة ضلالا بعيدا عن طريق الهداية والنجاة .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — الأمر بالمبالغة فى إقامة العدل وتحرى الدقة للوصول إلى ذلك .

٢ — الأمر باداء الشهادة وعدم تحريفها أو كتمانها ومراقبة الله وطلب مرضاته فى ذلك دون مراقبة قرابة أو جاه أو رغبة فى بر أو صلة .

٣ — بيان أن الله أرحم بعباده وأدرى بما يصلح شأنهم، فلا تميلوا فى إقامة العدل والشهادة لله بحجة أنكم تريدون الإصلاح أو تقصدون خيرا .

٤ — يجب على المؤمن أن يجمع بين إيمانه بالله ورسوله محمد والقرآن الكريم وبين الايمان بجميع الكتب التى أنزلها الله على رسله السابقين .

٥ — من فرق بين كتب الله ورسله ، فآمن ببعض وكفر ببعض لا يعتد بإيمانه .

٦ — أركان الإيمان خمسة : —

(ا) الايمان بالله رب العالمين .

(ب) الايمان بالملائكة ومنهم الذين يحملون الوحى إلى الرسل .

(حـ) الإيمان بالكتب التى أنزلها الله على رسله

(د) الايمان بالرسل الذين أرسلهم الله لهداية الناس .

(هـ) الايمان باليوم الآخر الذى يكون فيه الحساب والجزاء .

٧ — من كفر بشىء مما ذكر انهدم إيمانه وضل ضلالا بعيدا عن سبيل الهدى والرشاد .

* إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ
كُفْراً لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩) وَقَدْ
نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ
بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) ٱلَّذِينَ
يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ
وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم
مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ
لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) .

(بشر المنافقين) أنذرهم بالعذاب ، والتعبير بكلمة « بشر » بدلا من كلمة « أنذر » تهكما بهم (أيبتغون) أيطلبون (العزة) القوة والغلبة (يتربصون بكم) ينتظرون ما يحدث لكم من ظفر أو إخفاق .

المعنى العام :

بين الله تعالى فى هذه الآيات حال أناس ممن ضلوا ضلالا بعيدا - الذى ذكره فى ختام الآية السابقة - آمنوا فى الظاهر نفاقا أو تقليدا ثم انتكسوا إلى الكفر لعدم تمكن الإيمان من قلوبهم ، كما بين وعيد المنافقين والكافرين وموالاة بعضهم لبعض وحذر المؤمنين منهم . قال تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن

الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) ذلك بأنه قد تبين من ترددهم بين الكفر والإيمان ثم إصرارهم على الكفر وتماديهم فيه أنهم استحبوا الكفر على الإيمان ففقدوا بذلك صلاحيتهم لمغفرة الله وهدايته (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما) الغالب فى استعمال البشارة أن تكون فى الإخبار بما يسر وقد استعملت هنا فى إخبار المنافقين بما يسوءهم من العذاب الأليم تهكما بهم وتحقيراً لمسالكهم (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى يتخذون الكفار أنصاراً ويتركون ولاية المؤمنين ، وقد أنكر الله عليهم هذا المسلك بقوله : (أيبتغون عندهم العزة) استفهام إنكار وتوبيخ . إن كانوا يطلبون القوة والغلبة عند أوليائهم من الكافرين (فان العزة لله جميعاً) تطلب منه سبحانه وقد وعد الله بها عباده المؤمنين فقال: « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[1] وفى ذلك إشعار بضلال الذين يطلبون النصرة والقوة لدى أعداء دينهم من الكافرين ويتركون سبيل المؤمنين الذين كتب الله لهم العزة والنصر بصدق الإيمان واتباع هداية وحيه . (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) وقد سبق أن أنزل عليكم فى القرآن الكريم مايدعوكم إلى الإعراض والبعد عن الذين يخوضون فى آيات الله ويستهزئون بها وذلك فى قوله تعالى « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره »[2] فليس لصاحب عقيدة أن يصبر على امتهان عقيدته والاستهزاء بها من أعدائه ، فان لم يستطع أن يزيل الشر فليبتعد عنه ولا يحضر مجلسه (إنكم إذا مثلهم) أى إذا قعدتم معهم تكونون مثلهم وشركاء لهم فى كفرهم

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨ .

(٢) سورة الانعام الآية ٦٨ وهى مكية نزلت قبل سورة النساء لأنها مدنية .

واستهزائهم بآيات الله ، وفى هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » .
(إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) هذا وعيد للفريقين : المنافقين وأوليائهم من الكافرين يجمعهم الله فى جهنم كما اجتمعوا على الإثم والضلال . (الذين يتربصون بكم) ينتظرون ما يحدث بكم من نصر أو هزيمة ، وهذا وصف للمنافقين (فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) هذا تفصيل للتربص ، فإن نصركم الله وفتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم ويستحقون مشاركتكم فيما أنعم الله به عليكم (وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) وإن كان للكافرين نصيب من الظفر ـ والحرب سجال ـ قالوا لهم : لقد تمكنا من الايقاع بكم ولكنا لم نفعل ومنعناكم وحفظناكم من المؤمنين ، فهذه المنة لنا عليكم .

وجاء التعبير فى الآية عن ظفر المؤمنين بقوله « فتح من الله » وعن ظفر الكافرين بقوله «نصيب» للأشعار بأن العاقبة للمؤمنين وأنه سيكون لهم الفتح والاستيلاء والنصر فى النهاية على أعدائهم ، أما ما يحدث من ظفر الكافرين أثناء القتال فذلك نصيب لا يلبث أن يزول وتنمحى آثاره . والعاقبة للمتقين . (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) فهناك لا تروج دعوى المنافقين التى يدعونها عند النصر والفتح أنهم منكم ، ولا ينفعهم مايظهرون من الإيمان يوم تبلى السرائر ، وتنكشف الستائر ، ويظهر الله مافى الضمائر (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وعد من الله للمؤمنين بالنصر والغلبة والعزة وذلك مثل قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) . ومتى تحقق وصف الإيمان بما يقتضيه من امتثال جميع الأوامر التى بها صلاح الدين والدنيا استتبع ذلك ما أوجبه الله من النصر والتأييد .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ــ الذين انتكسوا فى الكفر بعد ما تبين لهم الهدى ليسوا أهلا لمغفرة.

الله وهدايته .

٢ — من أوصاف المنافقين :ـ

(ا) موالاة أعداء الله ، وطلب القوة والنصر من غير الله وأوليائه .

(ب) عدم الثبات على الحق ، وتخبطهم بين المؤمنين والكافرين طلباً للمنفعة العاجلة .

٣ — جزاء المنافقين والكافرين أن يجمعهم الله فى نار جهنم وبئس المصير .

٤ — يحرم على المؤمن أن يحضر مجلساً تنتهك فيه حرمات الله ويستهزأ بآياته .

٥ — وعد الله الذين قاموا بحقوق الإيمان وهديه ألا يجعل لعدوهم سلطاناً عليهم .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ
قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)
مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (١٤٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا
مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ
لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا
عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ
شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) .

(يخادعون) يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويوهمون غير ما يريدون
(مذبذبين) مترددين متحيرين (سطانا) حجة .

المعنى العام :

هذه الآيات تتمة لبيان أوصاف المنافقين التى تقدم بعضها فى الآيات السابقة (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) خداع المنافقين بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر كما حكى الله عنهم ذلك فى قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين(١)) وكانوا بذلك يوهمون الرسول والمؤمنين غير ما هم عليه فى الحقيقة ويظنون أنهم بذلك قد حققوا لأنفسهم السلامة وجعلوها آمنة فى رحاب المؤمنين ، ولكن

---

(٢) سورة البقرة الآية ٨ .

اله تعالى قابل فعلهم السيء بمثله فخدعهم حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال تجرى عليهم أحكام الشريعة ظاهراً . وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار .

وقد عبر الله عن ذلك بقوله : وهو خادعهم » فسماه مخادعة من باب المشاكلة للفظ الأول ، ونظيره قوله : « ومكروا ومكر الله » .

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) متثاقلين متباطئين فليس عندهم إيمان يدفعهم إلى أدائها عن رغبة ونشاط (يراءون الناس) لا يقصدون بأدائها وجه الله وإنما يريدون أن يراهم الناس فيعدُّوهم من المؤمنين ، فإذا أمنوا انكشاف حالهم تخلفوا عن الصلاة ، ولذلك كانت أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يذكرون الله إلا قليلا) أى هم فى صلاتهم ساهون لاهون ذكرهم لله باللسان دون القلب ، أو لا ينطقون إلا بالأذكار الجهرية التى يسمعها الناس كالتكبيرات والسلام وقول : « سمع الله لمن حمده » . روى أنس بن مالك عن رسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق . تلك صلاة المنافق : يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا » (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) مترددين متحيرين بين الكفر والايمان فلا هم منتسبون إلى المؤمنين الصادقين ولا هم منتسبون إلى الكافرين الجاحدين ، أو هم مضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين ، وتارة إلى الكافرين لأنهم طلاب منافع ولا يدرون لمن تكون العاقبة فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادعوا أنهم منهم ، وقد بين الله ذلك فيما سبق من الآيات . (ومن يضلل الله) لعدم استعداده للهداية والتوفيق (فلن تجد له سبيلا) يوصله إلى الهداية مهما بالغت فى دعوته وإقناعه .

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) تقدم فى وصف المنافقين قوله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» وفى هذه الآية نهى الله المؤمنين أن يسلكوا سبيل المنافقين فى ذلك فيتخذوا من الكافرين أولياء ونصراء ، يسرون إليهم بالمودة ، ويفشون أسرار المؤمنين إليهم (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة فى استحقاقكم العقاب ، فإن عملا كهذا لا يصدر إلا من منافق . (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) هذا جزاء المنافقين الذين سبق بيان حالهم ، وفى الآية إشارة إلى أن دار العذاب دركات بعضها أسفل من بعض ، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض . وإنما كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها بما جمعوا بين الكفر والنفاق ، ومخادعة الله والمؤمنين وغشهم والاستهزاء بهم (ولن تجد لهم نصيراً) ينقذهم من عذابها (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) استثنى الله من هذا العذاب الشديد الذى أعده للمنافقين ـ من تابوا من النفاق والكفر وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة :

١ ــ الإصلاح : وذلك باجتهادهم فى أعمال الإيمان كالتزام الصدق والنصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم ، والأمانة والوفاء وإقامة الصلاة بالخشوع والخضوع ومراقبة الله فى السر والعلن .

٢ ــ الاعتصام بالله : وهو الاستمساك بشرعه والتمسك بكتابه ، والسعى فى سبيل مرضاته « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم[١] » .

٣ ــ اخلاص دينهم لله : بالتوجه إليه وحده فى العبادة والدعاء ،

(١) سورة آل عمران الاية ١٠٢ .

فلا يقصدون أحداً سواه لجلب نفع أو دفع ضر ، وذلك كقوله تعالى : « فأعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص[١] » .

(فأولئك مع المؤمنين) أى فأولئك التائبون الذين هم لتلك الأعمال عاملون ، يكونون مع المؤمنين لأنهم منهم يؤمنون إيمانهم ويعملون عملهم ويجزون جزاءهم الذى عظم الله قدره بقوله : (وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما) لا يقدر قدره ، ولا يعلم حقيقته إلا الله (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) أى شىء يفعل الله بعذابكم ، أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر . أم يستجلب به نفعاً ، أم يستدفع به ضراً كما هو شأن الملوك . لا شىء من ذلك ولا غيره . وإنما العذاب جزاء الكفر بالله وبأنعمه عليكم فإذا زال ذلك عنكم وشكرتم وآمنتم انتفى التعذيب لا محالة (وكان الله شاكراً عليما) يثيب المؤمنين الشاكرين بأكثر مما يستحقون بحسب علمه بأحوالهم وإخلاص نياتهم وصدقهم فى التوجه إليه وحده .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـ من أوصاف المنافقين :

(ا) خداع الرسول والمؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر .

(ب) تثاقلهم عند القيام للصلاة ، ومراءاة الناس بها ، وقلة ذكر الله فيها .

(حـ) حيرتهم وترددهم بين طائفتى المؤمنين والكافرين .

٢ ـ المنافقون أشد خبثاً من الكافرين ، وعذابهم فى الدرك الأسفل من النار .

---

(٢) سورة الزمر الاية ٢ ، ٣ .

٣ - النهى عن أن يطلب المؤمن النصرة والولاية عند أعداء الله ، ويترك الاستنصار بالمؤمنين . فذلك صنيع المنافقين .

٤ - فتح الله باب الأمل للمنافقين ، فأعلن قبول توبتهم إذا أصلحوا العمل وأخلصوا النية واستمسكوا بدين الله .

٥ - ليس لله مأرب فى تعذيب عباده ، بل ذلك جزاء كفرهم به وجحودهم نعمته عليهم .

٦ - من شكر وآمن فالله يضاعف أجره ويجزل مثوبته وكان الله شاكراً عليما .

* * *

* لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً (١٤٩).

المعنى العام :

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى كثيرا من عيوب المنافقين ومفاسدهم وحذر المؤمنين من مثل أعمالهم وأخلاقهم، ولما كان ذكر هذه العيوب فى القرآن قد يفهم منه المؤمنون أنه لا مانع من ذكر عيوب الناس الموجودة فيهم - بين الله فى هذه الآيات حكم الجهر بالسوء حتى لا يقع أحد فى مثل هذا الخطأ فى الفهم فقال : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) والمراد بعدم المحبة كراهيته وسخطه على من يجهر بذكر سيئات الناس وعيوبهم لما فى ذلك من جلب العداوة والبغضاء بينهم، وإشاعة المنكرات والحديث عنها مما يؤثر فى النفوس تأثيرا ضارا، ويفقد ثقة المؤمنين فى مجتمعهم، ويضعف عند السامعين استقباح المنكرات إذا تعودت أسماعهم ذلك.

وقد نهى الله كذلك عن الإسرار بالسوء والتناجى به فقال : « يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى »(١). فيكون الحديث عن السيئات منهيا عنه فى السر والجهر على السواء (إلا من ظلم) فإنه يباح له أن يجهر بالشكوى ممن ظلمه حتى يصل بذلك إلى من يعاونه لرفع الظلم عنه (وكان الله سميعا عليما) لا يفوته قول من يجهر بالسوء أو يخفيه، عليما بالبواعث الداعية إلى ذلك، فيجازى كل إنسان بما يستحقه. (إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا) أى إن الذين يفعلون الخير جهرا أو سرا أو يعفون عن المسىء لهم جزاؤهم

(١) سورة المجادلة الآية ٩.

عند ربهم وهو كثير العفو يعفو عن سيئاتهم مع قدرته على مؤاخذتهم، وفى ذلك حفز للهمم على التسامح والمغفرة . « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »(١) .

ما يؤخـــذ من الآية :

١ — إن الله لا يرضى من عباده أن يجهروا بأحاديث السوء ، ولا أن يتناجوا بها . لما فى ذلك من المضار والمفاسد .

٢ — من وقع عليه ظلم ، يباح له أن يشكو ممن ظلمه ويعرض مظلمته على من يطلب منه الإنصاف ورد الظلم عنه .

٣ — حث الله المؤمنين على فعل الخير سرا وجهرا ، والعفو عن المسيء اقتداء بسنة الله معهم فى العفو عن ذنوبهم وهو القدير على مؤاخذتهم عليها .

---

(٢) سورة النور الاية ٢٢ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢)

المعنى العام :

بين الله تعالى فى هذه الآيات أن الإيمان لا يعتد به ولا يكون صحيحا إلا إذا كان إيمانا بالله تعالى وبجميع رسله الذين أرسلهم لهداية البشر ، فمن آمن بالله دون رسله ، أو آمن ببعض الرسل دون بعض لا يكون مؤمنا . وفى ذلك يقول تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) أى طريقا بين الإيمان بالله ورسله بفصل أحدهما عن الآخر (أولئك هم الكافرون حقا) أولئك المفرقون فى الإيمان بين الله ورسله هم الكافرون كفرا ثابتا يقينا لا ريب فيه (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) ذا إهانة تشملهم فيه الذلة والضعة . (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) فى الإيمان لعلمهم بأنهم كلهم مرسلون من عند الله تعالى (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) حيث قد صح إيمانهم فلهم أجرهم عند ربهم بحسب حالهم فى العمل الذى هو ثمرة الايمان (وكان الله غفورا) لهفوات من صح إيمانه فلم يشرك بربه شيئا ، ولم يفرق بين أحد من رسله (رحيما) بهم يعاملهم بالإحسان ويشملهم برحمته التى وسعت كل شىء .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — من آمن بالله وكفر برسله ، أو آمن ببعض الرسل دون البعض . هو من الكافرين يقينا .

٢ — الإيمان الصحيح يتحقق بعدم الإشراك بالله وعدم التفرقة بين رسله فى الإيمان .

٣ — للكافرين عـــذاب مهين ، وللمؤمنين أجر عظيم ومغفرة من ربهم ورحمة .

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا۟ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن
ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ
بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم
بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ
طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ
وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ
وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) .

(قلوبنا غلف) مغشاة بأغطية حسية مانعة من وصول ماجئت به إليها . ويقال للقلب الذى لايعى ولايفهم : قلب أغلف . كأنه حجب عن الفهم بالغلاف فلا ينفذ إليه شىء .

المعنى العام :

ذكر الله فى الآيات السابقة حال الذين يكفرون بالله ورسله ويفرقون

بينه تعالى وبين رسله فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض وهم أهل الكتاب الذين جعلوا الدين رياسة وعصبية ، لاهداية إلهية ، ثم بين فى هذه الآيات بعض أحوال اليهود من أهل الكتاب فى تعنتهم وتعجيزهم وجهلهم بحقيقة الدين وكفرهم بآيات الله ونقضهم عهوده فقال : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) بأن ينزل عليهم محرراً بخط سماوى يشهد أنك رسول الله ، وكان سؤالهم على سبيل التعنت والتعجيز ، فإن تعجب أيها الرسول من ذلك وتستنكره (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) وذلك أبلغ فى الدلالة على جهلهم وكفرهم بالله تعالى لأنهم ظنوا أنه جسم محدود تدركه الأبصار ، وتحيط به أشعة الأحداق . فعاقبهم الله على كفرهم (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) فأصابهم الله بالصواعق التى أرسلها عليهم جزاء ما ارتكبوا من الكفر والعناد (ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات) اتخذوا العجل إلها من بعد ماجاءهم موسى بالمعجزات الدالة على وحدانية الله تعالى (فعفونا عن ذلك) حين تابوا تلك التوبة النصوح التى قتلوا بها أنفسهم كما بين الله لنا ذلك فى قوله : « وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم »[1].

(وآتينا موسى سلطانا مبيناً) سلطة ظاهرة عليهم بإخضاعهم له حتى فى قتل أنفسهم (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) أى بسبب ميثاقهم ليعطوه ، فقد روى أنهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع الله عليهم الطور فقبلوها . وفى ذلك قوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون »[2]

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧١ ــ نتقنا : زعزعنا وجذبنا بشدة .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا) أى ادخلوا باب القرية أوالمدينة خاضعين مائلى الاعناق ذلة وانكسارا لعظمة الله (وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) لاتتجاوزوا حدود الله فى يوم السبت وكان قد حرم الله عليهم العمل الدنيوى فيه فخالفوا أمر الله واعتدوا فى السبت بصيدهم السمك، كما خالفوا فى دخول الباب سجدا ، فليس غريبا بعد ذلك مشاغبتهم للنبى صلى الله عليه وسلم وسؤالهم إياه أن ينزل عليهم كتابا من السماء (وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً) عهداً مؤكداً أن يعملوا بالتوراة ويقيموا حدود الله فيها (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف) فبسبب نقض أهل الكتاب من اليهود لميثاقهم الذى واثقهم الله به ، وكفرهم بآيات الله ودلائله التى أراهم منها مالم يره سواهم، وقتلهم الأنبياء الذين بعثوا لهدايتهم كزكريا ويحيى عليهما السلام ، وقولهم قلوبنا فى أغلفة لاينفذ إليها شىء مما جئت به . بسبب هذا وغيره من كبائرهم لعنهم الله وغضب عليهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة وغير ذلك من أنواع البلاء التى أوضحها القرآن الكريم فى آياته . (بل طبع الله عليها بكفرهم) أى ليست قلوبهم مغلفة كما يقولون بل طبع الله عليها وطمس على بصائرهم بسبب كفرهم فهم لايهتدون (فلا يؤمنون إلا قليلا) من الإيمان كإيمانهم بموسى والتوراة وهو إيمان لا يعتد به ، لأنه على ضعفه فى نفسه تفريق بين الله ورسله . (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) وبسبب كفرهم بعيسى عليه السلام وقذف أمه بالفاحشة كذبا وبهتانا يحير من يُرمى به ، وأى بهتان أعظم من أن تُرمى العذراء التقية النقية بالفاحشة . فهذا الكفر والبهتان من أسباب ماحل بهم من غضب الله ولعنته (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وبسبب قولهم هذا الذى يدل على منتهى الجرأة فى ارتكاب الجرائم والاعتداء على رسل الله (وما قتلوه وما صلبوه) لم يحدث ذلك كما ادعوا وأشاعوا بين الناس (ولكن شبه لهم) وقع لهم الشبه فظنوا

ذلك (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن) وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب فى حيرة وتردد ليس لديهم علم ثابت قطعى فهم يتبعون الظن الذى لايفيد يقينا . فمنهم من يقول إنه قد صلب ومنهم من يقول إن المصلوب غيره ، ومالأحد علم يقينى يستند إليه (وما قتلوه يقينا) واليقين الحق الثابت أنهم لم يقتلوا عيسى بن مريم ولم يصلبوه (بل رفعه الله إليه) هذه الآية كآية آل عمران : «إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا » فهذه الآية بشارة بإنجائه من مكرهم وجعل كيدهم فى نحورهم ، وقد تحققت هذه البشارة وأخبر الله عنها بقوله « بل رفعه الله إليه » روى عن ابن عباس أنه فسر التوفى بالاماته . فكل ماتفيده الآيات الواردة فى هذا الشأن هو وعد الله عيسى أنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله اعداؤه ولم يصلبوه ، ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه[1] . قال الرازى : المعنى رافعك إلى محل كرامتى ، وجعله رفعاً للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم . « إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » . والمراد رفعه إلى مكان لايملك الحكم فيه عليه إلا الله تعالى .

وليس فى القرآن الكريم ولافى السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء وأنه حى إلى الآن فيها، وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض[2] . (وكان الله عزيزاً) لايغلب وبعزته أنقذ عيسى عبده ورسوله من كيد اليهود ومكرهم فلم ينالوا منه ماكانوا يريدون (حكيما) فى كل مايقدره ويقضيه من الأمور . (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) مامن أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى عليه السلام وينكشف له وجه الحق فى أنه

---

(١) كتاب الفتاوى ص ٥٨ للشيخ محمود شلتوت وهناك إفاضة فى هذا الموضوع فليرجع إليها من شاء . (٢) المصدر السابق .

عبد الله ورسوله (ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) بما كفروا وكذبوا فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — كفر اليهود وعنادهم مع المرسلين طبيعة أصيلة فيهم ومن مظاهر ذلك ما يأتي :

(ا) سؤالهم الرسول أن ينزل عليهم كتاباً من السماء .

(ب) سؤالهم موسى أن يريهم الله جهرة .

(ح) اتخاذهم العجل إلـٰها بعد ما ظهرت لهم دلائل وحدانية الله .

(د) مخالفتهم أمر الله فى دخول باب المدينة سجداً .

(ه) اعتداؤهم فى السبت واصطيادهم الحيتان فيه .

(و) قتلهم الأنبياء الذين أرسلوا لهدايتهم .

(ز) كفرهم بعيسى ورميهم مريم بالفاحشة والزنا .

(ح) قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله .

٢ — حكم الله عليهم بسبب ذلك - بالذلة والمسكنة وغضب عليهم ولعنهم وطبع على قلوبهم فهم لا يهتدون .

٣ — رد الله كيدهم فى نحورهم فلم يقتلوا المسيح ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

٤ — لم يقتل المسيح ولم يصلب ، بل توفاه الله وجعله فى مكان رفيع عنده كما قال فى إدريس « ورفعناه مكانا عليا » .

٥ — أخبرت الآيات أنه ما من أحد من أهل الكتاب تزهق روحه قبل أن يؤمن بعيسى ورسالته. ولكنه إيمان لا ينفع صاحبه لفوات وقت التكليف

٦ — يشهد عيسى - يوم القيامة - على اليهود والنصارى بما كذبوا وكفروا

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ
وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً
أَلِيماً (١٦١) لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ
أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) .

المعنى العام :

بين الله فى الآيات السابقة ما كان من اليهود من نقض العهد والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء . . ثم بين فى هذه الآيات ما كان منهم من المعاصى دون ذلك وجزاءهم عليها فقال : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى فبسبب ظلمهم حرم الله عليهم طيبات كانت أحلت لهم وهذه الطيبات التى حرمها الله عليهم بينها تعالى فى قوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون »[1] وفى ذلك ما يفيد أن الظلم يكون سببا لعقوبة الدنيا قبل الآخرة (وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) وبسبب منعهم كثيرا من الناس عن سبيل الله بسوء القدوة أو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) وبسبب تعاملهم بالربا وأخذهم إياه وقد نهوا عنه على لسان أنبيائهم (وأكلهم أموال الناس بالباطل) بالوسائل التى لا حق لهم

(١) سورة الانعام الاية ١٤٦ .

فيها . بهذه الأسباب كان جزاؤهم فى الدنيا ما ذكر من تحريم الطيبات وأما جزاؤهم فى الآخرة فقد بينه تعالى بقوله : (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) أى هيأ الله للذين كفروا منهم عذابا شديد الإيلام . ثم بين الله أن من اليهود من آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد منهم فقال : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) لكن أهل العلم الصحيح بالدين من اليهود الذين لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، والمؤمنون من أمتك أيها الرسول إيمان إذعان يبعث على العمل (يؤمنون بما أنزل إليك) من البينات والهدى فى القرآن (وما أنزل من قبلك) على موسى وعيسى وغيرهما من رسل الله ولا يفرقون بين أحد منهم (والمقيمين الصلاة)أى وأخص المقيمين الصلاة بالذكر فى هذا المقام وهم الذين يؤدونها كاملة فى خشوع وصدق نية لله رب العالمين (والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر) مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح والثواب (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) أولئك الموصوفون بما ذكر كله سنعطيهم فى الآخرة أجرا عظيما لا يدرك حقيقته إلا الله الذى سيمنحهم إياه وهو ذو الفضل العظيم .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — المعاصى من أسباب زوال النعم وحلول النقم فى الدنيا وعذاب الله فى الآخرة .

٢ — من رذائل اليهود :

(ا) الصد عن سبيل الله وهو سبيل الخير والحق والعدل .

(ب) أكلهم الربا وهو محرم عليهم كما هو محرم على أمة الإسلام .

(حـ) أكلهم أموال الناس بغير الحق واحتيالهم على سلبهم إياها .

٣ — تقرر الآيات ارتباط الجزاء بالعمل ، فللكافرين عذاب أليم وللمؤمنين العاملين ثواب وأجر عظيم .

* إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣)
وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً (١٦٤) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥)
لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً (١٦٦)

المعنى العام :

جاءت هذه الآيات للرد على اليهود فى سؤالهم النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء، فقررت أن شأنه عليه السلام ليس بدعا من الرسل ، وإنما شأنه فى حقيقة الإرسال والوحى كشأن غيره من الأنبياء الذين آمن اليهود ببعضهم فلو كان إيمانهم بهؤلاء السابقين صحيحاً مبنيا على الفهم والبصيرة لما كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن أمر نبوته ورسالته أوضح دليلا وأقوم قيلا .

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) فقد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده الذين يدعى الإيمان بهم هؤلاء الناس ولم تنزل عليهم كتب من السماء حتى يسألوك مثل ذلك (وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط) وكما أوحينا الى ابراهيم ومن بعده من الأنبياء ، والاسباط جمع سبط وهو يطلق على ولد الولد . وأسباط بنى إسرائيل اثنا عشر سبطا ، فكل نسل ولد من

أولاد يعقوب العشرة ، ومن ولدى ابنه يوسف يسمى سبطا . ولذلك قيل : إن الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى ولد اسماعيل (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان) خصهم بالذكر مع دخولهم فى النبيين ـ تشريفاً لهم وإظهاراً لفضلهم وتصريحاً بمن ينتمى إليهم اليهود من الأنبياء (وآتينا داود زبورا) وكما أعطينا داود كتاباً خاصاً وهو الزبور أعطيناك القرآن (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) وأرسلنا غير هؤلاء رسلا قد قصصناهم عليك من قبل تنزيل هذه السورة (ورسلا لم نقصصهم عليك) ولم نعلمك بشىء من أخبارهم « وإن من أمة إلا خلافيها نذير »[1] (وكلم الله موسى تكليما) خاصاً ممتازا عن غيره من ضروب الوحى العام لأولئك النبيين ، وذلك ما يقتضيه اختلاف التعبير والتأكيد بالمصدر . وليس لنا أن نخوض فى حقيقة هذا التكليم وكيف كان فإننا لم نكن من أهله ، وعلينا الإيمان بوقوع ذلك كما أخبر القرآن دون تشبيه ولا تمثيل « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »[2] (رسلا مبشرين ومنذرين) أى أرسلناهم مبشرين من آمن وعمل صالحاً بالأجر العظيم ، ومنذرين من كفر وأجرم بالعذاب الأليم (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) لئلا يكون لهم معذرة يعتذرون بها فيدعون أنهم ما كفروا إلا لجهلهم ما يجب عليهم ، وأن لو أرسل إليهم من يرشدهم لآمنوا . قال تعالى : « ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »[3] (وكان الله عزيزا) لا يغلب (حكيما) فى جميع أفعاله التى من جملتها إرسال الرسل وإنزال الكتب . (لكن الله يشهد بما أنزل اليك) أى فان لم يؤمنوا بعد هذا البيان ويشهدوا برسالتك وأحقية ما أوحى به إليك كما شهدوا لبعض من سبقك من الأنبياء — فإن الله يشهد لك بذلك

(١) سورة فاطر الاية ٢٤ (٢) سورة الشورى الاية ١١ (٣) سورة طه الاية ١٣٤

(أنزله بعلمه) أنزله إليك ، وفيه البينات والهدى ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وفيه من العلم بالغيوب فى الماضى والمستقبل ، وفيه من صفات الله المقدسة ، وأخبار الآخرة مالا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به (والملائكة يشهدون) بصدق ما جاءك وأوحى به إليك (وكفى بالله شهيداً) فشهادته الصدق وقوله الحق « قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم »[1] .

ما يؤخذ من الآيات :

١ ـ ليس محمد صلى الله عليه بدعا من الرسل فقد أوحى الله إليه كما أوحى إليهم .

٢ ـ لله رسل لا نعلمهم ولم يخبرنا الله عنهم شيئا : فعلمنا قاصر على ما قصه الله علينا من أنباء الرسل وأقوامهم .

٣ ـ أبطل الله حجة العباد بإرسال رسله مبشرين ومنذرين ، فلا حجة بعد ذلك لكافر أو جاحد .

٤ ـ شهد الله والملائكة بحقيقة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاء به ، وكفى بالله شهيدا .

(١) سورة الأنعام الاية ١٩ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلاً
بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً (١٦٩) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ
بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠) .

المعنى العام :

بعد أن أزال الله فى الآيات السابقة ما أورده اليهود من شبهة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشهد له بصدق ما أنزله عليه - أنذر الذين يصرون على كفرهم ويستمرون على صدهم وظلمهم فقال : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) أى إن الذين كفروا بمحمد والقرآن وصدوا غيرهم عن سبيل الله بما يلقون من الشبه كقولهم : لو كان رسولا لأتى بكتابه دفعة واحدة من السماء كما أنزلت التوراة على موسى ، هؤلاء قد أغرقوا فى الضلال وبعدوا بعدا شاسعا عن الحق والصواب . (إن الذين كفروا وظلموا)أنفسهم بكفرهم وقبح عملهم وظلموا غيرهم بصدهم عن سبيل الله (لم يكن الله ليغفر لهم) ليس من شأنه ولا مقتضى سنته فى خلقه أن يغفر لهؤلاء الكافرين الظالمين (ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم) وليس من شأنه أن يهدى أمثالهم فى يوم الحساب طريقا غير طريق جهنم جزاء على كفرهم وظلمهم ، فانتظار هؤلاء المغفرة ودخول الجنات طلب للمحال وإبطال لسنن الله وحكمته فى خلق الإنسان .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

(خالدين فيها أبدا) مقيمين فيها إقامة دائمة لا يبرحونها ولا يخرجون منها (وكان ذلك على الله يسيرا) وكان هذا الجزاء سهلا على الله لا يستعصى على قدرته فعلى العاقل أن يتحاشاه بالإيمان والطاعة . (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم) بعد ما أقام الله الحجة على أهل الكتاب وأبطل شبههم وعنادهم نادى الناس جميعاً مقرراً أن الرسول الموعود به فى كتب الأنبياء السابقين والمعهود لدى أهل الكتاب قد جاءهم بالهدى ودين الحق من ربهم (فآمنوا خيراً لكم) فإن تؤمنوا يكن الإيمان خيراً لكم (وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض) فهو الغنى عنكم لا ينفعه إيمانكم ولا يضره كفركم ولا يعجزه عقابكم (وكان الله عليما حكيما) وكان شأنه العلم المحيط والحكمة البالغة ، وليس من علمه وحكمته أن يخلقكم عبثاً . وأن يترككم بعد ذلك سدى ، فهو يجازيكم بما تعملون إن خيراً فخير وإن شراً فشر «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد»[1] .

ما يؤخذ من الآيات :

١ — من كفر وصد غيره عن سبيل الله فهو فى ضلال بعيد وإثم كبير .

٢ — هؤلاء الكافرون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وغيرهم بالصد عن سبيل الله لا أمل لهم فى النجاة ، ولا طريق لهم إلا إلى جهنم وبئس القرار .

٣ — أخبر الله الناس جميعاً بأن الرسول الذى كان ينتظره أهل الكتاب والذى وردت البشارة به فى كتبهم قد جاءهم بالهدى ودين الحق من ربهم .

٤ — وجوب الإيمان بالرسول وبكل ما جاء به من عند الله ففى ذلك النجاة وفى غيره النكال والخسران المبين .

٥ — لله ملك السموات الأرض وما فيهما ، وهو الغنى وأنتم الفقراء إليه ، ومقتضى ذلك أن تطلبوا رحمته ورضاه بامتثال أمره واجتناب نهيه .

(١) سورة فصلت الآية ٤٦

يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ لاَ تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَـٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَـٰنَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلَـٰٓئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (١٧٣) .

(لا تغلوا) الغلو : مجاوزة الحد (لن يستنكف) لن يأنف ولن يترفع .

المعنى العام :

تقدمت الآيات السابقة فى إقامة الحجه على اليهود وبيان ضلالهم فى أفعالهم وأقوالهم التى من بينها الغلو فى تحقير عيسى عليه السلام واتهام أمه حين جاءت به من غير أب ، ثم جاءت هذه الآيات لإبطال نوع آخر من الغلو وهو تقديس النصارى للمسيح وتعظيمهم له وإفراطهم فى ذلك حتى دعوه ولداً لله . قال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) فتتجاوزوا الحدود التى حدها الله لكم (ولا تقولوا على الله إلا الحق) الثابت المحقق فلا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) إلى بنى إسرائيل أمرهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً . « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا

الله ربى وربكم »[١] ولكن أتباعه جاوزوا الحد ورفعوه عن رتبة الرسالة وادعوا ألوهيته . وبنوته لله ، وما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (وكلمته ألقاها إلى مريم) وهو تحقيق كلمته التى ألقاها إلى مريم ، فهو عبد من عباده ، وخلق من خلقه قال له «كن » فكان « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»[٢] فكلمة «كن » هى الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق الشىء وإيجاده وقد خلق المسيح بهذه الكلمة (وروح منه) وروح ذات حياة من عندالله، خلقه من غير واسطة أب ولا نطفة ، فآية الله فى إيجاده ظاهرة ، وقدرته فى خلقه قاهرة (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) فآمنوا باللهوخصوه بالألوهية والوحدانية وآمنوا برسله الذين بعثهم بشرائعه لهداية خلقه ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر فكل منها كامل . ومجموعها إله واحد ، فإنه تناقض تحيله العقول ولا تقبله الأفهام (انتهوا خيراً لكم) انتهوا عن هذا القول الذى ابتدعتموه يكن خيرا لكم (إنما الله إله واحد) ليس له أجزاء ولا أقانيم ولا شركاء (سبحانه أن يكون له ولد) تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ذكرا أو أنثى - وفيه رد كذلك على من ادعوا أن الملائكة بنات الله ، ولذلك جاء ذكر الملائكة فى الآية التالية (له مافى السموات ومافى الأرض) خلقا وملكا وتصرفا لا يخرج عن ملكوته شىء من الأشياء التى من جملتها عيسى بن مريم فكيف يتوهم كونه ولداً له تعالى (وكفى بالله وكيلا) يكل إليه كل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله) لن يأنف المسيح أو يترفع عن عبوديته لله وعبادته له فهو من خلقه وإيجاده «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[٣] وقد كانت أول مقالة قالها للناس: «إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً »[٤] وهو من أعلم خلق الله بعظمة الله ، وبأن هذه

(١) سورة المائدة الاية ١١٧
(٢) سورة آل عمران الاية ٥٩
(٣) سورة مريم الاية ٩٣
(٤) سورة مريم الاية ٣٠

العبودية هى أفضل ما يتفاضل به عباد الله (ولا الملائكة المقربون) يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله عابدين إياه (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) ومن يترفع عن عبادته أو يجعل نفسه كبيرة عن أن تكون من العابدين (فسيحشرهم إليه جميعاً) فإن الله سيجمع المستنكفين والمستكبرين وغيرهم يوم القيامة ثم يحاسبهم ويجزيهم بأعمالهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) لا ينقصهم من جزاء أعمالهم شيئا (ويزيدهم من فضله) فيضاعف لهم حسناتهم أضعافاً كثيرة ويمنحهم من جوده وإحسانه ماشاء، والله ذو الفضل العظيم (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما) فى نار جهنم (ولا يجدون لهم من دون الله ولياً) يتولى أمورهم (ولا نصيرا) ينصرهم ويدفع عنهم شيئاً من العذاب «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله»[1].

ما يؤخذ من الآيات :

١ — النهى عن الغلو ومجاوزة الحد فى دين الله بالنقص أو الزيادة فيه.

٢ — تقرير وحدانية الله تعالى وأن المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله.

٣ — خلق المسيح وإيجاده بقدرة الله الذى يقول للشىء كن فيكون.

٤ — عيسى بن مريم والملائكة المقربون والأنبياء المرسلون كلهم عبيد الله لا يستكبرون عن عبادته والخضوع لعظمته وفى ذلك منتهى فضلهم وعزهم.

٥ — يجزى الله المؤمنين العاملين بعدله وفضله ويجزى المستكبرين الجاحدين بالعدل فقط ولا يظلم ربك أحدا.

---

(١) سورة الانفطار الآية (١٩)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطاً مُّسْتَقِيماً (١٧٥) .

المعنى العام :

بعد أن أقام الله الحجة على اليهود والنصارى وعلى المنافقين ، وظهرت حقيقة نبوة محمد وصدقه ـ نادى الناس جميعاً ودعاهم إلى اتباع برهانه والاهتداء بنوره فقال : (يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) يخاطب الله جميع الناس بأنه قد جاءهم من عنده برهان ودليل واضح جلى يبين حقيقة الإيمان الصحيح بالله عز وجل ، مؤيداً لكم ذلك بالدلائل والبينات والحكم ، وهو محمد النبى العربى الأمى (وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)وأنزلنا إليكم بما أوحينا إليه كتاباً هو النور الذى لا ينكره إلا جاحد ، وهو مبين ومظهر وكاشف لكل ما يحتاج إليه الناس من عقيدة صحيحة وعبادة قويمة وسلوك مستقيم وخلق كريم مما يصلح شأن دنياهم وآخرتهم ـ وهو القرآن الكريم المعجزة الكبرى والآية العظمى (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) فالمؤمنون بالله المعتصمون بالقرآن سيدخلهم الله فى رحمة تخصهم لا يدخل فيها سواهم وفضل خاص لا يتفضل به على غيرهم (ويهديهم إليه صراطاً مستقيما) طريقاً قويماً لا اعوجاج فيه ، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة ، وفى الآخرة على الصراط المستقيم الموصل إلى روضات الجنات . وذلك جزاء العاملين بالقرآن المعتصمين به المستمسكين بهديه .

ما يؤخذ من الايات :

١ ــ دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الذى أنزل عليه .

٢ ــ من آمن بالله واستمسك بهدى كتابه فله من الكرامة والفضل ما ليس لأحد سواه .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (١٧٦) .

(كلالة) ما عدا الوالد والولد من القرابة (هلك) مات .

المعنى العام :

بعد أن بين الله فى أول السورة أحكام الأموال والمواريث ختم آخرها بذلك ليكون الآخر مشاكلا للأول ، وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال: «دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت ، فقلت إنه لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الميراث (يريد هذه الآية) .

(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) أى يطلبون منك الفتيا فى ميراث من مات وليس له ولد ولاوالد ، قل الله يفتيكم فى ذلك (إن امرؤ هلك) مات (ليس له ولد) ولاوالد، ولم يذكر لدلالة معنى الكلالة عليه، لحذف الإيجاز (وله أخت) شقيقة أولأب (فلها نصف ماترك) وقد ذكر فى أول السورة ميراث الأخوة لأم[1] (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) فيحوز كل المال تعصيبا وهو الأخ الشقيق أو لأب (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فإن كانتا اختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان من تركة أخيهما المتوفى وكذلك إن كن أكثر من اثنتين كأخوات جابر وكن سبعا أو تسعا (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين) وإن كان

(١) الآية ١٢ ص ٦٤ من هذا الكتاب .

الأخوة الوارثون ذكوراً وإناثا فللذكر مثل حظ الانثيين [1] (يبين الله لكم أن تضلوا) يبين الله لكم أمور دينكم التى منها تفصيل هذه الأحكام كراهة أن تضلوا فى قسمة التركات وغيرها من التصرفات (والله بكل شىء عليم) فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه خيركم وصلاح أموركم فلا تكونوا فى شك من ذلك ولا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يعدكم الفقر والله يعدكم مغفرة منه وفضلا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

تمت كتابة التفسير بقلم عبد الرحمن العدوى فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف من هجرة المصطفى عليه وعلى آله أزكى الصلاة والسلام .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

الجزء الثانى

(١) سبق بيان انصباء الأخوة الاشقاء أو لأب تفصيلا فى ص ٦٥ من هذا الكتاب .